

عدد خاص
بزلزال تركيا - سورية / شباط - فبراير ٢٠٢٣

دَوَاء

مجلة فكرية دورية

- الزلزال وامتحان العقائد
- الأمة العظيمة تصنعها المِحْن وتصلقها التحديات
- ذكرى بطعم الزلزال.. على أنقاض الوطن!
- هل كانت استجابة الأمم المتحدة في سوريا بحجم الكارثة؟

الزلزال الكبير.. مِحْنٌ وَمِنَحٌ

العدد التاسع عشر

شعبان ١٤٤٤ هـ

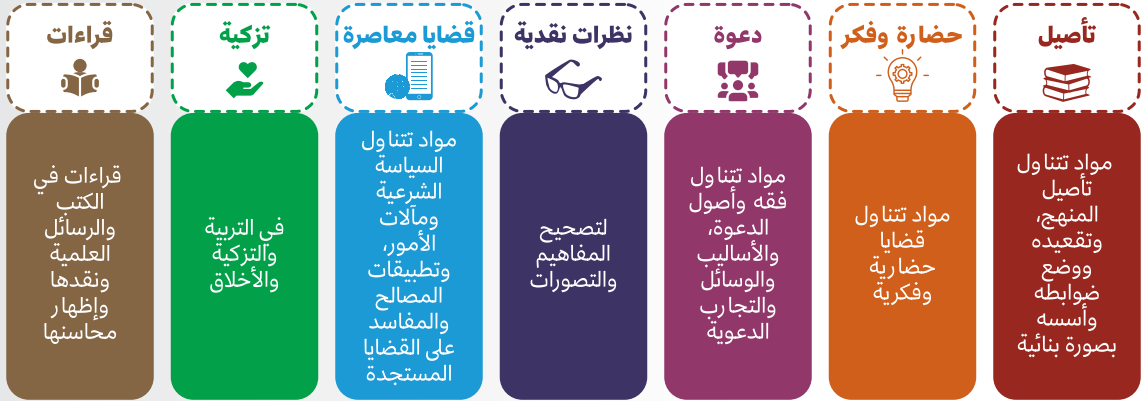
آذار / مارس ٢٠٢٣

19

هذه المجلة

- (رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:
- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
 - بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
 - تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
 - إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية ضمن المحاور الأساسية للمجلة



ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة بسياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحْكَم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أي وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدم إلى أي جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

- ٢..... **الزلزال الكبير.. مَحْنٌ وَمِنْحٌ**
الافتتاحية
- ٨..... **الزلزال وامتحان العقائد**
د. معن عبد القادر
- ١٢..... **الأمة العظيمة تصنعها المَحْن وتصلقها التحديات**
أ. مجاهد مأمون ديرانية
- ١٦..... **ذكرى بطعم الزلزال.. على أنقاض الوطن!**
د. ياسين جمُول
- ٢١..... **ملاحح الخطاب الدعوي في الكوارث والمصائب**
أ. عبد الرحمن رجو
- ٢٦..... **حول العدالة الإلهية في المصائب والكوارث**
د. عماد الدين خيتي
- ٣٣..... **هل يمكن للبشر أن يصنعوا زلزالاً؟**
م. فداء ياسر الجندي
- ٣٧..... **جماليات التوجيهات الإسلامية عند الابتلاءات**
د. مضر محب الدين
- ٤٤..... **الزلزال وفقه السنن الإلهية**
د. عطية عدلان
- ٤٧..... **هل كانت استجابة الأمم المتحدة في سوريا بحجم الكارثة؟**
م. كندة حواسلي
- ٥٤..... **بأقلام القراء**
مجموعة من القراء
- ٥٦..... **وَزَلزَلوا زلزالاً شديداً**
د. خير الله طالب



مجلة رواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين



أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي

رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد

مدير التحرير

أ. محمود درمش

سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:

rawaa@islamicsham.org



rawaamagazine

www.rawaamagazine.com

www.islamicsham.org

الزلازل الكبير.. مِحْنٌ وَمِنْحٌ

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، قال السعدي: «ليتدبّر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبّر فيه والتأمّل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره»^(١).

والثاني: النظر في التاريخ والأمم وأحوالها وفهم أسباب صعودها وزوالها وأخذ الدروس والعبر من أحوالها والاستفادة مما جرى عليهم، قال تعالى:
﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، قال مجاهد: «﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، في الكفار والمؤمنين، والخير والشر»^(٢).

وبهذين النظريين: النظر في هذا الكتاب العظيم بما فيه من قوانين وسنن ونواميس ذكرها الله

وجاء الزلازل الكبير في هذا التوقيت في هذه البقعة الجغرافية لحكمة يريدها الحكيم الخبير، والله سبحانه وتعالى في أقداره حكمٌ بالغة، ومقاصد عظيمة، قد لا تظهر لجميع الناس، أو في وقت قريب، وقد يتفاوت الناس في فهمها وإدراكها؛ فيفهمها قومٌ على وجه ويذهب فيها قومٌ مذهباً آخر، لكن ما لا شك فيه أنّ الله تعالى يدبّر صغائر الأمور وعظائمها لتحقيق غايات عظمى تحارّ الألباب في بديعها ودقتها وإحكامها.

مفاتيح للفهم:

حثنا الله تعالى على أمرين حثاً مكرراً في كتابه الكريم:

الأول: تدبّر القرآن الكريم وتأمل آياته لتظهر غوامض المعاني وكوامن الأسرار، قال تعالى:

(١) تفسير السعدي، ص (٧١٢).

(٢) تفسير الطبري (٢٢٩/٧).

التركية والمناطق السورية، وعند النظر في هذه المناطق نجدها مناطق كثيفة سكانياً، والمناطق التركية منها مكتظة بالسوريين الذين دفعت بهم جرائم النظام السوري إلى البحث عن مكان يأوون إليه، أما المناطق السورية (في شمال غرب سوريا) فمكتظة هي الأخرى بالنازحين من المحافظات والمناطق السورية الأخرى التي عانت من بطش وويلات النظام.

« وعلى الصعيد السياسي كانت الاستعدادات في تركيا للانتخابات المفصلية على قدم وساق، وكل حزب يقدم ما لديه من وعودٍ وتطميناتٍ لجمهوره وناخبيه، فجاء الزلزال وسط هذه الأجواء، ليبدأ بعدها التساؤل عن تأجيل الانتخابات عن موعدها من عدمه، ويستغلها جميع الأطراف في دعايتهم الانتخابية.

« وضع السوريين في تركيا كان في حالة ترقبٍ للسباق الانتخابي العام الذي يُعتبرون فيه مادةً معتادة للتهديد بالترحيل، ويتوافق ذلك عادةً مع موجات الكراهية والعنصرية، أما السوريون في المناطق المحررة فقد كانوا يرقبون بقلق تقدم مؤشرات التطبيع مع النظام السوري، من قبل دول المنطقة ومن خلفها دول العالم، وأما السوريون في مناطق سيطرة النظام فليسوا في حالٍ أفضل، فهم ينتظرون الفرج من الله من سوء الأحوال الاقتصادية والمعيشية، فضلاً عن الأمنية والسياسية.

« المتأمل في هذا الزلزال يُدرك أنه حدثٌ عظيم، بما أحاط به من حيثيات وملابساتٍ زمانية ومكانية وبشرية، إضافةً للسياق السياسي والاقتصادي الذي سبقه، وبقليل من النظر يتوقع المرء تأثيراتٍ كبيرةً لهذا الحدث على مختلف الأصعدة

بعيد الكارثة:

وقع الزلزال، وشاء الله أن يكون بهذه الصورة المذكورة، وأفاق الناس والعالم على صدمة كبيرة جداً، وبدأت المشاعر تتداخل بين الحزن على الضحايا، والخوف على من انقطع التواصل به، ثم توالى الأحداث والتفاعلات بأشكال متعددة، كان أبرزها ما يلي:

صريحة واضحة، أو مضمّنة تُفهم من سياق وتركيب القصص القرآني، والنظر في أحوال الأمم السابقة وأخبارها، يمكن للمرء أن يفهم أو يقارب العديد من الحكم والمقاصد العظيمة، ولله الحكمة البالغة.

« بالنظر في القرآن الكريم بما فيه من قوانين وسنن ونواميس ذكرها الله صريحة واضحة، أو مضمّنة تُفهم من سياق القصص القرآني، وبالنظر في أحوال الأمم السابقة وأخبارها، يمكن للمرء أن يفهم أو يقارب العديد من الحكم والمقاصد العظيمة للأحداث الكبيرة

المشهد قبل وأثناء الكارثة:

« المتأمل في هذا الزلزال يُدرك أنه حدثٌ عظيم، بما أحاط به من حيثيات وملابسات، وبما أحدثه من تغييرات، وبقليل من النظر يتوقع المرء تأثيراتٍ كبيرةً لهذا الحدث على مختلف الأصعدة والسياسات، ومن أهم ما يلحظ في توقيت الزلزال المكاني والزمني:

« توقيت الزلزال لم يكن عادياً، بل كانت ليلة الزلزال من أبرد الليالي في هذا الشتاء، في أوج العاصفة الثلجية، الأمر الذي فاقم الصعوبات التي واجهها أهالي المناطق المنكوبة، فالبقاء في البيوت المتهاكلة تعريض لهم لخطر الموت تحت الأنقاض، والخروج للعراء تعريض لهم لمخاطر التجمد والتوعك الصحي نتيجة البرد الشديد، ثم إن وقت الهزتين كان قبل الفجر والناس نيام.

« طبيعة الزلزال كانت قوية للغاية هزّت الأرض بطريقة غير معهودة؛ الأمر الذي أدى إلى تساقط الأبنية وإظهار هشاشتها، كما امتدّت الهزتان القويتان ما يقرب من دقيقة كاملة، وهو وقت طويل جداً وكفيل بإحداث الهلع في النفوس والدمار في البنيان، هذا فضلاً عن العدد المهول للهزات الارتدادية التي فاقت ١٣,٠٠٠ هزة خلال شهر من وقوع الزلزال.

« المكان الذي حصل فيه الزلزال ليس نقطةً واحدةً كما حصل في حوادث سابقة، بل منطقةً واسعةً تقاسمها عدد غير قليل من الولايات

تركز القسم الأكبر من المساعدات على النظام السوري مع أن مناطقه هي الأقل تضرراً، وكأنه المؤتمن على الشعب ولم يقتل ويشرد منهم عشرات أضعاف ما حصل بسبب الزلزال!

« ومن جهة أخرى جاءت المساعدات الدولية الداعمة للنظام السوري والتطبيع السياسي العربي معه -بحجة الوقوف معه في كارثة الزلزال- لتزيد من حُلْكة ليل السوريين، وتفاقم الأوضاع الضاغطة.

الله جل في علاه يُجري سنن التداول والتغيير والتمكين والاستبدال بما شاء من الأسباب، وفيما شهدنا من الأحداث في واقعنا المعاصر كانت الكوارث كالزلازل والأوبئة مع الحروب والتعثرات الاقتصادية، شريكة للحراك البشري في المداولة وتغيير واقع الدول والمجتمعات

عِبْرٌ وَدُرُوسٌ كُبْرَى:

هذه الأحداث والتداعيات مع النظر في السنن الكونية والسنن الشرعية تذكرنا وتؤكد لنا أموراً عديدة، أهمها:

★ الأمور بيد الله يُدبِّرها كيف يشاء، وفق حكمة يعلمها، ولا رادَّ لحكمه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولو ذُكر لأحد ما سيحدث بهذه الكيفية وهذا الحجم لاستبعد ذلك جداً، ولاعتبره ضرباً من الخيال، فسبحانه ما أحكمه وما أقدره.

★ هوان الحياة التي نعيشها؛ فهي قابلة للزوال بلمح البصر، فكم غادرنا من الأحبة والأصحاب تحت الأنقاض من لم نتمكّن حتى من وداعهم، وكم زالت من بيوت وأبنية وُضِعَ فيها أهلها مدّخراهم وخلاصة كدّهم لسنواتٍ طويلة.

★ أنّ الآجال مكتوبة، وكلُّها بتقدير الله، ومن لم يستكمل رزقه وأجله فلن يموت ولو حاصرته الأنقاض لأيام، ومن جاء أجله مات على فراشه بلا علة ملموسة ولا سببٍ ظاهر.

★ للأحداث الكونية والطبيعية تأثيرٌ على الحراك البشري العام ومجرياته السياسية والاجتماعية وغيرها، وما ذكر من التأثير في سير الانتخابات التركية والتفاعل الدولي المحابي للنظام

« بدأ في تركيا خطاب المحاسبة واللوم على التقصير بين الحكومة والمعارضة، وصارت الدولة على المحكّ، إما أن تقدّم نجاحات فينسى الناس ما كان من إخفاقات خلال عقدين من الحكم، أو أن تخفق فينسى الناس نجاحاتها.

« كما كان لافتاً تأخر ظهور الشخصيات والمؤسسات السورية الرسمية في الشمال المحرّر، بعكس باقي المؤسسات المدنية والعسكرية.

« جذبت الحكومة التركية جهودها نحو إنقاذ العالقين تحت الأنقاض، وإسعاف المصابين، وإيواء المشردين وإطعامهم وإغايتهم، فاستنفرت الدولة وأجهزتها، وأقيمت حملات جمع التبرعات، في تركيا وبعض الدول العربية، وكان ما جمع في تركيا لافتاً جداً من جهة حجمه والتكاتف الشعبي والمؤسسي العام.

« حصلت حركة نزوح داخلية كبيرة في تركيا جرت على السوريين والأتراك على السواء، فأقيمت المخيمات وأعدت المساكن الجماعية، وتوزّع الناجون من الولايات المتضررة على عشرات الولايات، وقد يستوطن كثير منهم فيها، فسبحان مقدر الأمور ومغير الأحوال.

« لم تخل عمليات الإنقاذ والإغاثة من ظهور الخطاب والممارسات العنصرية، إلى جانب نماذج مشرّفة من الإنسانية والمروءة والنجدة.

« وفي المناطق السورية المحرّرة هبّ أصحاب القلوب اليقظة وأصحاب الأيدي البيضاء إلى إغاثة المتضرّرين وإنقاذ العالقين، جمعيات وأفراداً ومؤسسات كلُّ بما يستطيع، وسجّلت مواقف مشرّقة وبطولات تكتب بسطور من ذهب من الشجاعة والنخوة والإيثار، على الرغم من الضعف التقني وفقدان الكثير من الأدوات والمعدّات الضرورية.

« المساعدات المقدّمة أظهرت جانباً من النفاق الدولي المألوف، فالملايين التي قدّمت لتركيا من بعض الدول كان يقدم أكثر من منها بكثير لدولٍ أخرى في كوارث أقلّ في الحجم وأعداد الضحايا.

« وفي ذات الوقت لم يصل للمناطق المحررة الأكثر تضرراً في سوريا من المساعدات الدولية إلا النزر اليسير، أغلبها من بعض الدول العربية، بينما

مفاتيح فهم الأحداث الكبرى في حياة البشر

الثاني / النظر في تاريخ الأمم وأحوالها:

لفهم أسباب صعودها
وزوالها وأخذ الدروس
والعبر والاستفادة مما جرى
عليهم

الأول / تدبر القرآن الكريم: بما فيه من قوانين وسنن ونواميس صريحة أو مضمنة في سياق القصص القرآني

بلاءٍ وشقاء، وأنَّ المسلم ينبغي أن يكون فيها
(كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثمَّ راحَ وترَكها)^(١)
وهذا دافع لهم لإصلاح ما بقي من أعمارهم
والاستعداد لليوم الآخر، وترك الغفلة والرجوع
إلى الله تعالى.

★ العودة إلى الله بالدعاء والتضرُّع والتوكل؛ فمن
طبيعة الإنسان الغفلة في حال الرخاء، بينما
تردُّه المصائب إلى دينه وربِّه، وتبعده عن حياة
المسرفين الغافلين وفي ذلك خيرٌ كثير.

★ ثبت مجددًا كما في مناسبات سابقة أنَّ أمة
الإسلام أمةٌ حية، وأنها أمةٌ الجسد الواحد،
فالنجدة الشعبية التي أتت من كل حدب وصوب
أثبتت أنَّ الحدود السياسية حدودٌ مصطنعة، لا
تعترف بها القلوب الحية، ولا تفرق بين أبنائها.

★ أظهر الحدث حياة قلوب الناس النابضة بالحس
والخير في جميع المناطق، بتكافلهم وسرعة
استجابتهم، وتماسك منظماتهم، بالرغم من
فداحة الخطب وقلة النصير، وصعوبة الأحوال
المادية، خصوصًا في الجانب السوري.

السوري ليس إلا قدرًا يسيرًا مما ظهر لنا، وقد
يكون لهذه التداعيات تأثيرات أكبر وأعمق أثرًا
في مستقبل الأيام.

★ الله جل في علاه يجري سنن التداول والتغيير
والتمكن والاستبدال بما شاء من الأسباب،
وفيما شهدنا من الأحداث في واقعنا المعاصر:
كانت الكوارث كالزلازل والأوبئة - مع الحروب
والتعثرات الاقتصادية -، شريكةً للحراك البشري
في المداولة وتغيير واقع الدول والمجتمعات.

جوانب من الأمل من رحم الأمل:

لا يُقدَّر الله سبحانه وتعالى شرًّا محضًا، بل
يكون مع الأقدار المؤلدة جوانب من الخير، وهذه
الكارثة على ما فيها من حزن وفقد وتشرد رأينا
في ثناياها جوانب من الخير ما كانت لتحصل بهذا
الحجم الكبير لولا الزلزال، فمن المكاسب التي
يحصل عليها المؤمن في الضراء والمصائب:

★ استيقاظ كثير من القلوب الغافلة، لما رأوا
بأعينهم كيف أنَّ أجلمهم قريب، وأنَّ الدنيا فانية؛
وأنَّها ليست محلًّا راحةً ولا نعيم، بل هي دار

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) واللفظ له، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠٩).

من آفات هذه الدنيا وآلامها ومن كل ما يكدّر خواطرهم، قال رسول الله ﷺ: (الشهداءَ حَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، والمَبْطُونُ، والغَرِقُ، وصاحبُ الهَدْمِ، والشَّهيدُ في سَبِيلِ اللَّهِ) (١).

* تكفير السيئات، ورفع الدرجات، وهذا عامٌّ في كلِّ المصائبِ صغيرها وكبيرها، قال رسول الله ﷺ: (ما من مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بها عنه، حتى الشوكية يُشاكها) (٢).

* توسعة الأرزاق لأقوام ضاقت عليهم الدنيا وقلَّ نصيرهم، فلما وقع الزلزال تدفقت المعونات فاستفادوا وأطعموا من يعولون، ووجدوا مأوى أفضل.

* الخير الذي لا نراه، لكن الله يعلمه، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، فقد يكون في هدم الدار أو ضياع الأموال أو الجراح أو الموت خير سيّضح لاحقاً ويظهر للمؤمن، ومن تدبّر ما جاء في سورة الكهف من قصة أصحاب السفينة التي خرقت (فقد المال) والغلام الذي قتل (فقد الولد) يدرك ما وراء هذه المصائب من حكم ومنافع بالغة قد لا تظهر إلا لاحقاً.

التوازن في الخطاب:

حتى تتوازن الصورة لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الكارثة قد تكون رحمة على قوم، وتكون بلاء وعقوبة على آخرين، وقد يجتمع في البلاء انتقام ورحمة في الشخص أو المجتمع نفسه: عقوبة على معصية، وكفارة ورحمة على إسلام وطاعة، ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكر أنّ المجتمع كان فيه من صور الظلم والتمييز على أساس الجنسية والعرق ما فيه، ومثلها أخذ المكوس والإتاوات الباهظة، وأشكال المعاصي الموجبة لغضب الرحمن.

وهذه المعاني متواترة في نصوص الكتاب والسنة، ومما يجدر أن يقال في مثل هذا الموقف:

* ظهور الخطاب العنصري البغيض في أسوأ صورته، مما جعل العديد ممن كانوا يسكتون عنه يُجاهرون بتخطئته ومعاداته، وينكرونه على وسائل الإعلام. ولا تزال الحاجة الملحة قائمة لمحاربة هذا الخطاب واستئصاله فكرياً وممارسةً على جميع المستويات.

* انكشاف الفاسدين من جميع الفئات: المقاولون الذين لم يراعوا الأمانة في تشييد البناء والعمران، وحلفاء الظالمين الذين يمدّونهم بأسباب البقاء والاستمرار، وينصرونهم على المظلومين والمضطهدين ممن لا حول لهم ولا قوة، وهذا مقصد عظيم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتبينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] قال السعدي رحمه الله: «فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل» (١)، وكذلك المستغلون للآزمات في الإثراء غير المشروع في رفع الأثمان، أو سرقة الإغاثات، أو المساومة عليها، ونحو ذلك.

لا يُقدّر الله سبحانه وتعالى شراً محضاً، بل يكون مع الأقدار المؤلمة جوانب من الخير، وهذه الكارثة على ما فيها من آلام كبيرة رأينا في ثناياها جوانب من الخير ما كانت لتحصل بهذا الحجم لولا الزلزال، كاليقظة وإظهار الخير والتكاتف والتلاحم بين المسلمين وانكشاف الفاسدين

عطايا الرحمن لأهل الإيمان في المصائب

والابتلاءات:

* رحمة الله تعالى بهذه الأمة، فالمصائب التي تُصيبها في الدنيا تُخفف عنها من عذاب الآخرة: (إنّ أمتي أمةٌ مَرحومةٌ ليس عليها في الآخرة عذابٌ؛ إنّما عذابها في الدنيا: القتلُ والبلابلُ والزلازلُ) (٢).

* اختيار الله شهداء من عباده من المؤمنين، الذين يعفيهم مما كلفهم به من التكليف، ويعفيهم

(١) تفسير السعدي، ص (٢٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٧٨)، وأحمد (١٩٧٥٢) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢٩)، ولو خيّر هؤلاء الشهداء بين ما رأوه من المكانة، والعودة للدنيا مع السلامة من الزلزال لاختاروا ما عند الله.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٠).



الليل تفاءلنا بقرب انبلاج الفجر، ولعل الله أراد لهذه الأمة أن تختلط مصائبها ببعضها فيتراحم أبناءها وتنصلح قلوبهم، وأن تتمايز الصفوف فتستبين سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، فيكون المؤمنون أقرب لاستحقاق النصر الموعود، وأن تتجه الأنظار لهذه البقعة من أرض الشام المباركة لتحقيق نصر عظيم قادم، كما كانت حادثة غزو الكعبة وإرسال الطير الأبايل على الغازين إيذاناً ببعث النور وبزوغ فجر النبوة المحمدية.

كل مصيبةٍ وابتلاءٍ هي خيرٌ وأجرٌ للمؤمن إن هو صبرٌ واحتسب، وكلُّ ابتلاءٍ ومصيبةٍ سوءٌ وشرٌّ إن جزع وتسخط، فإذا وطَّن نفسه على تحمُّل المصائب، والرضى بقضاء الله قدره، فلا يضرُّه بعد ذلك إن علم سبب البلاء أو لم يعلمه

الثمرة العملية للكلام عن كون البلاءات والمصائب كفارات أو عقوبات هي: أن كل مصيبة وابتلاء هي خير وأجر للمؤمن إن هو صبر واحتسب، وأن كل ابتلاء ومصيبة هي له سوءٌ وشرٌّ إن جزع وتسخط، فإذا وطَّن نفسه على تحمُّل المصائب، والرضى بقضاء الله وقدره، فلا يضرُّه بعد ذلك إن علم سبب البلاء أو لم يعلمه، والمسلم يتهم نفسه بالذنوب والتقصير على كل حال، ويفتش عن الخلل والزلل، فكلنا خطاؤون، وأئنا لم يفرط في جنب الله تعالى، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أصاب المسلمين يوم أحدٍ بمقتلة عظيمة، وهم أصحاب النبي ﷺ، وخير البشر بعد الرسل والأنبياء، بسبب مخالفة أمر النبي ﷺ، فكيف يظن المرء بعد ذلك في نفسه استحقاق رفعة الدرجات في كل ما يصيبه، وقد روي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه كان إذا رأى اشتداد الريح وتقلب السماء يقول: هذا بسبب ذنوبي، لو خرجت من بينكم ما أصابكم.

وختامًا:

فإننا نثق بأن أمة الإسلام لا تفنيها المحن والابتلاءات، بل تقويها وتشدُّ من أزرها، ومن سنن الله الماضية: الفرج بعد الشدة، فإذا ازدادت حلكة

الزلازل وامتحان العقائد

د. معن عبد القادر^(*)

الزلازل من جملة الكوارث التي تصيب البشر، فتشعرهم بعدم الاستقرار وتحدث لهم شيئاً من الخوف والحزن والقلق، وذلك ليتحقق نوع من أنواع الاختبار والابتلاء، فيظهر ما في النفوس على حقيقته دون تصنيع، فينجح في الامتحان قوم ويرسب آخرون، فماذا تختبر هذه الكوارث في البشر؟ وكيف يستعد لها؟ تتعرّض هذه المقالة لجانب مهم في الابتلاءات وطبيعتها

(ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشَاكها إلا كفر الله بها من خطاياها)^(١).

لكنَّ الخوفَ كلَّ الخوف من تطرُّق الشكِّ إلى اليقينيَّات، وتزعزُعها في النفوس، والأخطر من ذلك أن يتفوه الإنسان بكلماتٍ من الاعتراض والتسخط تكون فيها هلكته، وقد تودي كلمة بصاحبها في العذاب الأليم (وإنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ الله لا يُلقى لها بالاً، يهوي بها في جهنم)^(٢).

عاش الناس مع أيام الزلازل -ولا يزالون- أوقاتاً عصيبة، مليئة بالآلام والأحزان، فجع فيها الحبيب بحبيبه، وأصيب المرء في بدنه، وتهدم بيته، وفقد ماله، وهام على وجهه في الأرض. فما أشدها من مصائب، وما أوجعها من حوادث.

وتنوّعت أحوال الناس تجاه هذا الكرب، بين صابر محتسب، وهلوع مضطرب، ومتسخط منقلب على وجهه. أما الحزن والبكاء، فأمرٌ فطر عليه البشر (إنَّ العين تدمع، والقلب يحزن)^(٣) بل هي من جملة ما يثاب المسلم عليه بتكفير سيئاته

(*) أكاديمي وكاتب في قضايا التربية والحوار والفكر

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥). قاله النبي صلى الله عليه وسلم عند وفاة ولده إبراهيم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٨).

رسول الله ﷺ صديقاً». وسبب تسميته أنه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ ولازم الصدق، فلم يقع منه هنات ولا وقفة في حال من الأحوال»^(١).

لقد كان اعتقاد الصديق بصدق النبي ﷺ راسخاً لا يُزعزعه شيء، فلما امتحن في موقف عجيب خارق للعادة يصعب على التصديق -حتى أن أناساً ممن مالوا لتصديق النبي ﷺ وكادوا يؤمنون به تراجعوا عنه- ظهرت قوة إيمانه ورسوخ يقينه.

فالناس تدعى أموراً، لكن لا يثبت صدقها إلا بالاختبار والامتحان. ولو يُعطى الناس بدعواهم لادعى الخليل حرقه الشجيرة.

لقد كان اعتقاد الصديق بصدق النبي ﷺ راسخاً لا يُزعزعه شيء، فلما امتحن في موقف عجيب خارق للعادة يصعب على التصديق ظهرت قوة إيمانه ورسوخ يقينه

مشقة الامتحان:

ومن البدهي أن يكون الاختبار شاقاً، لأنه لو لم يكن كذلك لما تبين صاحب العقيدة الراسخة من صاحب القناعة الرقيقة، إذ كلهم يجتاز الاختبار اليسير.

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والإقدام قتال

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَنْكُمُ الشَّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢].

ومن هنا كان أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، حتى أن الله أمر خليفه إبراهيم أن يذبح ابنه الذي أوتيته على كبر، وبعدهما بلغ معه السعي. لقد قضى الله أن من أراد خليفاً لنفسه أن يثبت خلوق قلبه من كل حلة إلا ما أراد خليفه له، فابتلاه هذا البلاء ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

والاختبار يحصل به أمران: إيقاف الكاذب في دعواه على كذبه، وإيقاف الصادق في دعواه على درجة رسوخه.

من أكثر ما يُخشى في الابتلاءات تطرق الشك إلى اليقينيّات، وتزعزُعها في النفوس، والأخطر من ذلك أن يتفوّه الإنسان بكلمات من الاعتراض والتسخط تكون فيها هلكته، وقد تودي كلمة بصاحبها في العذاب الأليم

الصادق الأمين:

كان النبي ﷺ يُعرف في مكة منذ نشأته بالصادق الأمين، وذلك لما رأى فيه قومه من الأمانة والصدق والعفة ومكارم الأخلاق، لكنهم لما اختبروا في ذلك رَسَبوا في الاختبار. فإنه لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل يُنادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطن قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: (أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدّقين؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)^(١) كذبه أكثرهم.

فتعجبهم مما جاء به ﷺ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِهًا وَاجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وتعصّبهم لما كان عليه أبائهم، لم يتركا لاعتقادهم بصدقه أثراً، فكانوا مستعدّين لتصديقه في الأمر اليسير، ولكن ليس في الأمر الخطير!

قارن هذا بحال الصديق ﷺ، فيما ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعن أبيها: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدّقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر ﷺ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لأن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: نعم إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، ومن هنا سُمّي أبو بكر ﷺ بالصديق^(٢). قال النووي في تهذيب الأسماء: «وأجمعت الأئمة على تسميته صديقاً. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن الله تعالى هو الذي سُمّي أبا بكرٍ على لسان

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٤٠٧).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (١٨١/٢).

اختبار الإيمان بالله:

إنَّ أولَ ركنٍ من أركان الإيمان، وهو أساس الأركان الأخرى، الإيمان بالله. ومن الإيمان بالله الإيمان بأسمائه وصفاته. ومن صفاته جلٌ وعلا: الحكمة، فلا يفعل سبحانه شيئاً عبثاً، ومنها العدل، فلا يظلم ربك أحداً، ومنها رحمته التي وسعت كل شيء.

ولقد نَوَّعَ اللهُ لنا أدلَّةَ حكمته وعدله ورحمته، في آياته المتلوة، وآياته المرئية، في كتابه وسنة نبيه، وفي الكون والنفس، وفي أحوال البشر والمخلوقات وغيرها، بما لا يدع مجالاً لأدنى شك فيها.

فحكمته تعالی ظاهرة في إحكامه لخلقه وإتقانه لصنعه من أدق الجسيمات وأصغرها إلى أعظم الأجرام وأضخمها، وما زال العلماء يكتشفون في اتجاهي الدقة والضخامة ما يثبت إحكام الخلق، وإطراد قوانينه الناظمة، وجريه على سنن لا تتوقف ولا تتخلف. كما ظهرت حكمته تعالی في شرائعه التي أوحى بها إلى نبيه ﷺ، فيما يحقق سعادة الإنسان وأمنه وينظم تعامله مع محيطه، وثبت لدى العقلاء أن ما شرعه الله تعالی قبل قرون طويلة أكمل وأحكم مما وضعه البشر اليوم من القوانين التي تتجرع البشرية مرارة آثارها وسوء عواقبها، وقد جمع الله تعالی حكمته في خلقه، وحكمته في شرعه في قوله تبارك وتعالى: ﴿الْأَلْهَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وعدله تبارك وتعالى ظاهرٌ في تحريمه للظلم على نفسه وعلى عباده، وأمره بالعدل والقسط، دون محاباة لقريب أو شريف وهو ما ترجمه نبيه ﷺ بقوله: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وإيمُّ الله لو أن فاطمة بنتَ محمد سرقت لقطعت يدها)^(١)، وليس أدلَّ على عدله سبحانه من تدبيره ليوم الحساب الذي توضع فيه الموازين وتوزن فيه الأعمال، وترد فيه الحقوق والمظالم، ويقتص فيه لكل مظلوم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧-٨].

ورحمته سبحانه التي وسعت كل شيء أظهرٌ من أن ندلُّ عليها، فهي قانون الفرج بعد الشدة، واليسر الذي يُرافق

فيفتضح أمر الأول وينكشف، فينفي الله خبثه عن الناس والمجتمع إلا أن يتوب، ويتعظ الثاني فيستدرك ويصحح.

وأشقُّ الاختبار هو الذي ينفذ إلى أصل الاعتقاد، ليرى ثباته عليه، كما تُختبر المباني الشاهقة في أساساتها.

لقد كان الاختبار الحقيقي لاعتقاد صدق النبي ﷺ هو في إخباره عن أمر غير معتاد، فيكون التسليم للخبر هو محض تصديق المخبر، لا لأن في الخبر ما يدعو إلى تصديقه، بل قد كان في خبر الإسرائ ما يُحيل تصديقه!

وقد كاد الاختبار ألا يكون إلا هذا! ولكن من يُطبقه؟ ومن كالصديق؟ ولهذا اقتضت رحمة الله ولطفه بعباده أن يكون في ثنايا البلاء ما يُعين الإنسان على اجتيازه «تنزل المعونة على قدر المؤونة».

اكتساب الاعتقاد واختبار الاعتقاد:

يكتسب الإنسان عقيدته في أمر ما من كثرة الشواهد والأدلة عليها وقوتها، حتى لا يبقى معها مجالٌ للشك، فتصبح عقيدة راسخة.

ثم تأتي المواقف لتختبر درجة رسوخها، وكلما كان الموقف مُصادماً للاعتقاد في ظاهره، كانت الفتنة به أشدَّ. فإذا تزعزع يقين الإنسان بما كان يعتقد دلُّ ذلك على ضعف التأسيس أصلاً، وهذا يدلُّ على خطورة زمن التأسيس. فإذا وفق الله العبد لاجتياز الاختبار، خرج منه أشدَّ صلابةً ورسوخاً، فأصبح البلاء في حقه سبيلاً لتمكين اعتقاده.

تأتي مواقف الحياة لتختبر درجة رسوخ العقيدة، فإذا تزعزع يقين الإنسان بما كان يعتقد دلُّ ذلك على ضعف التأسيس أصلاً، وهذا يدلُّ على خطورة زمن التأسيس. فإذا وفق الله العبد لاجتياز الاختبار، خرج منه أشدَّ صلابةً ورسوخاً، فأصبح البلاء في حقه سبيلاً لتمكين اعتقاده

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) ومسلم (١٦٨٨).

أحيط به، ورحمة خفية ستظهر ولو بعد حين. لأن يقيني بحكمة الله وعدله ورحمته فوق كل شك. ولأن الله رحيمٌ بعباده، وحتى لا يكلفهم ما لا يطيقون فإنه لا يعمي الأمر عليهم تمامًا، بل يظهر لهم بعض جوانب حكمته ورحمته وعدله فيما يفعل، فمن ظهر له ذلك فقد أراد الله أن يثبتته، ومن خفي عليه فقد وكله الله إلى إيمانه ويقينه.

قد لا يملك المرء كشف جوانب العدل أو الحكمة أو الرحمة فيما يحدث، ولكن عدم امتلاكه للجواب لا يشكك في الاعتقاد، بل يقول: لله حكمة لا أعلمها، وعدل لا أحيط به، ورحمة خفية ستظهر ولو بعد حين. لأن يقيني بحكمة الله وعدله ورحمته فوق كل شك

وخلاصة القول:

١. أن الإنسان لا بد أن يبتلى، وهي سنة الله في المؤمنين ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، فليوطن المؤمن نفسه على توقع المصائب والصبر عليها.

٢. العناية بتأسيس الاعتقادات عناية فائقة، حتى تثبت عند الامتحان الصعب، تمامًا كما يعتنى بالمباني الشاهقة عند التأسيس أن تصمد عند الزلازل. وقد رأينا نماذج ملهمة لأطفال صغار نشأهم أهلهم على حقائق الإسلام الناصعة، فنطقوا وهم في أشد حالات الكرب والألم بما لا ينطق به الكبار في براءة وعفوية.

٣. ليتذكر الإنسان أنه إن سلم له دينه فكل مصاب بعده هين، وهو مأجور عليه، ولكن الخسارة الكبرى أن يُصاب في دينه أو تتلم عقيدته بالاعتراض والتسخط، فيكون الابتلاء وبالاً عليه.

٤. ليتلمس الإنسان في خضم المصائب والكوارث نفحات الله، ودلائل الحكمة، ومشاهد اللطف والرحمة، فيستروح بها، ويستعين بها على تخفيف مصابه.

اللهم لا حول ولا قوة لنا إلا بك، لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

البلاء، والأدوية المكافئة للأدواء والعلل، كلها من دلائل رحماته تعالى مما يخفف على الناس مصاعب الحياة وتحدياتها، ومن مظاهر رحمته خلقه للذكر والأنثى متوائمين متجاذبين يسكن كل منهما للآخر، ورزقه للبنين والبنات بما يحدثونه من سعادة وبهجة في نفوس والديهم، ومن الرحمت العظيمة تكفله سبحانه برزق كل مخلوق على هذه الأرض، فكل أحد يجد رزقا يطعمه إلا من استكمل رزقه وحل أجله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

فما مقدار رسوخ هذه الصفات في نفوسنا؟ وتجذرها في قلوبنا؟ هذا الذي تكشفه الابتلاءات، ونخص منها الابتلاءات التي لا تكون الحكمة أو العدل أو الرحمة فيها ظاهرة لكل أحد، بل قد يبدو الأمر خلاف ذلك.

تأمل هذا الموقف المهيّب. جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا^(١).

تأمل هذا الاختبار لهذه المرأة الضعيفة، ومعها رضيعتها، تترك في مكان قفر ليس فيه بشر ولا شجر، وليس معها إلا زاد من تمر وماء سرعان ما سينفد. لقد اجتمعت في حالها كل أسباب الخوف من «الضيعة» فكان اختبارا صعبا لرسوخ يقينها بمعية الله وحفظه، ونجحت في الاختبار. ولو كان في الجوار ماء أو شجر أو بشر لربما كان ثباتها ورباطة جأشها لركونها إلى ذلك. أما والحال هذه، فقد ثبت يقينها ثبوتا لا زعزعة فيه.

قول «لا أعلم» لا ينافي رسوخ الاعتقاد:

وها هنا أمر جدير بالاهتمام. قد لا يملك المرء كشف جوانب العدل أو الحكمة أو الرحمة فيما يحدث، ولكن عدم امتلاكه للجواب لا يشكك في الاعتقاد، بل يقول: لله حكمة لا أعلمها، وعدل لا

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

الأمة العظيمة تصنعها المِحن وتصقلها التحديات

أ. مجاهد مأمون ديرانية (*)

المصائب ليست شرًا محضًا، بل فيها من الخير ما يفوق التصورات والتوقعات، وهذا الخير لا يظهر لكل أحد بل يتطلب قدرًا من الفكر والجهد، فمن بذله حصل على مكاسب عظيمة في دنياه وأخراه، ومن استسلم وقعد كانت مصيبتُه مضاعفة، لكن الاستفادة من المِحن لا يُجيدها كلُّ أحد، بل لها رُؤادها وقادتها، فمن هم؟ وما هي نتيجة هذه الاستفادة على مستوى المجتمع والأمة؟

من حياتهم. كانت تلك الحادثة هي المفتاح الذي فتح للبشرية باب التحصين من الأمراض السارية الفتاكة، فقد استنتج جينر أن من يصيبه المرض ثم لا يقتله فسوف يملك حصانة ضده طول العمر.

ولكي يتأكد من فرضيته حقن ابنه بقيح بقرة مصابة، فأصيب في الأيام التالية بحمى شديدة ثم سُفي وبات محصنًا من المرض إلى الأبد. وهكذا اكتشف الدكتور إدوارد جينر الأساس النظري لعلم «المناعة»، فعندما يُحقن شخص سليم بميكروبات ضعيفة ستحتج جهازه المناعي على توليد أجسام مضادة تمنحه حصانة دائمة من المرض، وسوف يُكتب له البقاء -بأمر الله- عندما ينتشر الوباء الفتاك.

-1- في يوم من أيام عام ١٧٩٦ زار طبيبٌ إنكليزي اسمه إدوارد جينر سوقًا لمنتجات الأبقار في بلدة بيركلي الصغيرة في جنوب إنكلترا، وهناك سمع محادثة بين اثنتين من بنات المزارعين. كانت إحداهما تتحدث بخوف عن انتشار وباء الجدري الذي حصد ملايين البشر في الأزمنة القديمة، وكان ما يزال وباءً مخيفًا فتاكًا ليس له دواء، فقالت الأخرى: «أنا لن أصاب بهذا المرض لأنني أصبت بجدري البقر في طفولتي».

اهتم جينر بما سمعه، وسأل الفتاة فأخبرته أن الذين يربون المواشي لا يؤذيهم الجدري الذي يقتل الناس لأنهم يصابون بجدري البقر في مراحل مبكرة

(*) باحث إسلامي.

البشرية قويًا جدًا فقد يقضي عليها، وإذا كان ضعيفًا جدًا فلن يستثير طاقاتها الكامنة وسوف تبقى على حالتها الأصلية من الضعف والخمول.

نفهم من هذه النظرية أن أفضل التحديات في حياة الأمة ومسيرتها الحضارية هي التحديات المتوسطة التي لا تتركها نائمة مسترخية بلا عمل، ولا تحطمها أو توصلها إلى مرحلة الإخفاق الكامل. وإن من نعم الله على الأمة المسلمة أنه منحها ضمانًا من التعرض للنوع المهلك من التحديات والابتلاءات، فعندما سأل النبي الرحيم عليه الصلاة والسلام ربّه الكريم أن لا يهلك الأمة ويستأصلها بكارثة عامة أعطاها ما طلب. أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وآله قال: (إني سألت ربي ثلاثًا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)^(١).

لا بد أن تتعرض الجماعات البشرية لتحديات مختلفة، وسوف تختلف ردود أفعالها بين التجاهل واللامبالاة أو الانهيار والانكسار، والأمة الحية الفاعلة لا تنتهي إلى أي من المصيرين، فهي تبذل جهدها للتغلب على التحديات التي تواجهها وتبحث عن الحل الأمثل الذي تعالج به ما تواجهه من صعوبات وتحديات. أما الأمم التي لا تصاب بأي نوع من المحن والصعوبات والتحديات فسوف تتبدل أحاسيسها ولن تسعى إلى الارتقاء وستبقى ضعيفة فاشلة إلى الأبد، وكذلك سيكون مصير الأمم التي تصاب باليأس وتستسلم للتحديات ولا تحاول توليد الحلول لما تصاب به من مصائب وابتلاءات.

تتعرض الجماعات البشرية لتحديات مختلفة، وتختلف ردود أفعالها بين التجاهل واللامبالاة أو الانهيار والانكسار، والأمة الحية الفاعلة لا تنتهي إلى أي من المصيرين، فهي تبذل جهدها للتغلب على التحديات التي تواجهها وتبحث عن الحل الأمثل الذي تعالج به ما تواجهه من صعوبات وتحديات

هذا القانون ليس خاصًا بالأمراض البدنية فقط، بل هو قانون صالح مع كل الصعوبات والتحديات التي نواجهها في الحياة، فإن «البلاء الذي لا يحطم الإنسان يقويه». وكما أن الميكروبات المضعفة التي لا تقتل المصاب تمنحه مناعة ضدها؛ فكذلك تصنع بالإنسان الابتلاءات التي لا تكسره.

وقد باتت هذه الفكرة نظرية مقررة في الدراسات النفسية المعاصرة، فالتحديات التي يمر بها المرء في حياته قد تكون هيئة متواضعة لا تؤثر فيه ولا تحفزه على العمل فتأتي وتذهب بلا فائدة، أو تكون شديدة قاسية تبلغ من العنف درجة تحطمه وتقضي عليه. وكلا النوعين لا خير فيه؛ المِحَن والتحديات المفيدة هي ما كانت وسطًا بين هذه وتلك، التي لا تبلغ من الهوان درجة لا يحس بها من يصاب بها ولا تبلغ من القوة درجة تحطم الإنسان وتتركه عاجزًا بالكلية.

قانون المناعة ليس خاصًا بالأمراض البدنية فقط، بل هو قانون صالح مع كل الصعوبات والتحديات التي نواجهها في الحياة، فإن البلاء الذي لا يحطم الإنسان يقويه. وكما أن الميكروبات المضعفة التي لا تقتل المصاب تمنحه مناعة ضدها؛ فكذلك تصنع بالإنسان الابتلاءات التي لا تكسره

-٢-

إذا كان القانون السابق صالحًا مع أفراد الناس فإنه صالح مع الجماعات الكبيرة أيضًا، فقد أمضى المؤرخ الشهير أرنولد توينبي سنواتٍ طويلة في دراسة الحضارات البشرية، ومن تلك الدراسة الشاملة الدقيقة استخلص نظريته الشهيرة، نظرية «التحدي والاستجابة»، التي صارت من أفضل النظريات التاريخية وأقدرها على تفسير نشوء وارتقاء الحضارات وتطور المجتمعات البشرية.

يرى توينبي أن الأمم تتعرض لأنواع مختلفة من التحديات التي تتفاوت في قوتها وقسوتها، وأن درجة التحدي وطبيعة الاستجابة هي التي تحدد مصير الأمة وموقعها في سلم القوة والضعف بين الأمم. فإذا كان التحدي الذي تواجهه الجماعة

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٠)، وفي الباب مثله عند الترمذي والنسائي عن خباب بن الأرت بلفظ قريب. (بالسنة) أي بحدٍ عامٍ يعم كل بلاد المسلمين.

وصابِرٍ تلهَجُ الدنيا بنكبته
تَخَالُهُ - من جميل الصبر - ما نُكِبَا

ما أحوَجْنَا إلى المتميِّزين الأفضال الذين
لا يَقْعُدُونَ خاملين بانتظار من يعلق
الجرس، لا يضيِّعون الوقت باجترار الحزن
وبثِّ اليأس والبكاء على الذات، بل إنهم
ليطرحون الضعف ويستعيدون بالله
من العجز، ثم يشمرون عن السواعد
ويقومون لتشغيل القاعدين فيما فيه خيرٌ
الجماعة وصلاح معاشها

-٤-

على أن لنظرية توينبي تكملة مهمة، هي أن
الاستجابة الخلاقة للتحديات القاسية التي تواجهها
الجماعة البشرية لا تحصل بشكل جماعي، فليس
كل أفراد الجماعة قادرين على التعامل الناجح
مع الكوارث والتحديات، فالذي يحصل عادة هو
أن مجموعة صغيرة من الجماعة الكبيرة تتصرف
بإيجابية وتبحث عن الحلول ثم تدفع الجماعة
الكبيرة إلى المشي في طريق النجاة، وعندها يتحقق
التغير المنشود في مصير الجماعة كلها.

يسمى توينبي أولئك الأفراد الواعين «الأقلية
المبدعة»، ولعلمهم هم أنفسهم الذين تحدث عنهم هذا
الحديث النبوي العظيم: (الناس كالإبل المته، لا تكاد
تجد فيها راحلة)^(١). والراحلة كل نجيب من الإبل كما
تقول العرب. هؤلاء القلة من المتميزين المهتمين والقادة
المتبوعين هم الذين يحددون المسارات ويجددون
الطاقات، وهم الذين يحركون الناس ويمدّونهم
بالتفاؤل والأمل في أوقات الشدائد والأزمات. هؤلاء
القلة يشقون الطرق والكثرة يتبعون ويُقلّدون،
القلة يُبادرون ويتقدمون في الملمات المهمات والكثرة
ينتظرون من يرشدهم إلى ما يصنعون.

ما أحوَجْنَا اليوم وكلّ يوم إلى أولئك المتميِّزين الأفضال
الذين لا يَقْعُدُونَ خاملين بانتظار «المخلص» وانتظار
من يعلق الجرس، لأنهم هم أنفسهم مختصون بتعليق
الأجراس. الذين لا يضيِّعون الوقت باجترار الحزن
وبثِّ اليأس والبكاء على الذات، بل إنهم ليطرحون
الضعف ويستعيدون بالله من العجز، ويردّدون
صباح مساء دعاء النبي الكريم عليه أفضل الصلاة

كم كنت أعجب عندما أشاهد صور المجاعات في
بعض البلاد فأرى أناساً يجلسون زاهلين خاملين
ينتظرون الموت، وكنت أقول لنفسي: لقد تفوّقت
الحيوانات العجماوات التي لم توهب إلا الغريزة
على أولئك العقلاء الذين وهبهم الله العقل والإرادة،
فلو أن التي ضربها الجوع كانت طيوراً تطير في
السماء أو دوابّ تدبّ على الأرض لانطلقت ساعية
باحثة عن الحياة في أي مكان. ألا ترون إلى الهرّة
كيف تطوف تتشمّم الأرض تبحث عما يسد الرمق؟
أليكون بعض أبناء آدم أعيب من القطط؟ إن الفرق
بين الأمم الحية والأمم الميتة هو الهمة والعزيمة
والمبادرة والثقة بالنفس، فإنّ الأموات ينتظرون
النجدة من غير أنفسهم، أما الأحياء فيعتمدون على
أنفسهم لا على الآخرين. الأمم الحية هي التي تجعل
من الصعاب فرصاً للتقدم والنجاح، والأمم الميتة
هي التي يصوّر لها عجزها ويأسها الفرص صعباً
مستعصية على العلاج، ولقد أثبتت الأمة المسلمة
على الدوام أنها أمة حية قادرة على التعافي من
البلاء وأنها ليست أقل شأنًا من الأمم التي أصابتها
الابتلاءات القاسية وكثرت الكوارث العظيمة.

كنا نضرب المثل قديماً بدول أوروبا التي تحولت
في الحرب العالمية الثانية إلى ركام، ثم نهضت من
تحت الركام وأعدت بناء ما دمرته الحرب وعادت
أقوى وأغنى مما كانت قبل الحرب. كانت تلك الدول
هي مضرِب المثل في الحيوية والقدرة على التعافي
ومغالبة الصعوبات حتى تفوّق عليها الشعب
السوري الذي ابتلي بأنواع البلاء، ثم هو ينهض
كلّ مرة ويستجمع قواه ويعود إلى الحياة من بعد
ما أشرف على الممات. لقد أدهش الشعب السوري
بصبره العالم وحيّر الدنيا! اجتمع عليه الأعداء الذين
تفرقوا عن غيره وانفض عنه الأصدقاء الذين اجتمعوا
على سواه، ولبت يُقَصِّف أشدّ القصف ويبدأ بأنواع
المبيدات عشر سنين حتى ظنّ خصومه أنه لم يبق
في صدره نفس يتردد، لكنه أثبت دائماً أن رصيده
من الصبر لا ينفد، وما هو يللم جراحه بعد كارثة
الزلازل الأخير كما صنع مع كل مصاب أصيب به
في السنوات الماضية، وما زال راضياً صابراً على
القضاء وما يزال قادراً على الاحتمال والإنجاز رغم
طول البلاء وضراوة المحنة وصعوبة الطريق، فكأنه
هو الذي قال فيه شوقي ما قال:

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٨) ومسلم (٢٥٤٧).

أحوال المجتمعات والأمم مع التحديات التي تواجهها

٢

الأمم التي تصاب باليأس وتستسلم
للتحديات لا تنهض وتبقى متأخرة

١

الأمم التي لا تصاب بأي نوع من المحن
تتبدد وتضعف وتفشل

٣

الأمم التي تتغلب على التحديات وتبحث عن
الحلول تكتسب القوة والحيوية للنهوض

الخلاصة

لا تيأسوا -يا أيها الناس- مهما اشتد الكرب وتعاضم البلاء، فإنَّ الأمم العظيمة تنشأ نتيجةً لسلسلة طويلة من التحديات والاستجابات الناجحة، وإن المصاعب والابتلاءات والكوارث التي تُصاب بها الأمة لن تقضي عليها إلا لو بلغت من العنف والقوة والقسوة درجة الإبادة والاستئصال، أما التحديات الصعبة التي لا تبلغ تلك الدرجة المتطرفة فإنها تصلقها وتزيدها قوة وتدفعها إلى التفوق والنجاح.

وإن أهم ما تنهض به الأمم وتنتصر في معركة البقاء هو القدرة على تحويل التحديات إلى فرص، والهمة والعزيمة والرغبة في الحياة والإصرار على الانتصار. واعلموا أن الأمة تحتاج في الشدائد والملمات والتحديات إلى «الرواحل» أكثر من أي وقت آخر، فهم المنقذون الذين يتقدمون لقيادة الجموع في الظروف الاستثنائية التي لا تحتمل التردد والانتظار وهم الذين يشقون طرق النجاح والازدهار. فلا تنتظر ولا تتردد يا صاحب الهمة العلية والإدراك السليم، بل امض في دربك وشق طريق النجاة، ولا تستوحش لو مشيت فرداً في طريق قلّ سالكوه، امض في مسالك الخير وسرعان ما ستزدحم الطرق الجديدة بالسالكين.

والتسليم: (اللهم إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل)^(١)، ثم يشمرون عن السواعد ويقومون لتشغيل القاعدين فيما فيه خير الجماعة وصلاح معاشها. وقد رأينا في سوريا في كارثة الزلزال الأخير (كما رأينا من قبل في سنوات المحنة الطويلة) كثيرين من هؤلاء «الرواحل».

آلاف منهم وعشرات ألوف اندفعوا إلى العمل بوازع ذاتي يُمليه الإحساس بالواجب ويحركه الضمير، كثيرون من أصحاب الهمة العلية والنظر العميق والضمير الحي والوجدان النبيل نظموا أنفسهم وتطوعوا لعلاج المصابين وإطعام الجائعين وإيواء المشردين وإغاثة المنكوبين، رأيناهم دائماً يتحركون بدافع داخلي ذاتي، فهم يفتحون الباب ويمهدون الطريق للآخرين الذين يأتون ورائهم بعد حين. بارك الله فيهم وجزاهم خير الجزاء.

أهم ما تنهض به الأمم وتنتصر في معركة البقاء هو القدرة على تحويل التحديات إلى فرص، والهمة والعزيمة والإصرار على الانتصار. والأمة تحتاج في الشدائد والتحديات إلى «الرواحل» أكثر من أي وقت آخر، فهم المنقذون الذين يتقدمون لقيادة الجموع في الظروف الاستثنائية ويشقون طرق النجاح والازدهار

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٣) ومسلم (٢٧٠٦).



ذكرى بطعم الزلزال... على أنقاض الوطن!

د. ياسين جمول^(*)

مع الذكرى الثانية عشرة للثورة السورية .. لم تزل جراح الشعب السوري نازفةً لم تلتئم، ومع تراجع مساحات المناطق المحررة، وتردي الأحوال المعيشية، جاءت كارثة الزلزال لتضيف جرحاً جديداً، وعاملاً يسهم في تشكيل الواقع، فما هي آثار الزلزال على الشمال السوري؟ وما الخطوات المأمولة في المستقبل القريب؟

دفعه مساعدات إلى المناطق المنكوبة في الشمال، ومع اعترافها البارد بتأخرها في الاستجابة التي يُفترض أنها «طارئة عاجلة» فقد أكملت خذلانها للشعب السوري ووقوفها مع النظام المجرم؛ فاستجدهت ليسمح لها بإدخال المساعدات من معبرين جديدين، وليشكر رئيسها رأس النظام على تلك المَكْرمة!

لا يستغرب عاقلٌ متابع ما فعلته الأمم المتحدة؛ فلولا تخاذلها مع المجتمع الدولي وارتهاؤها بيد عُصبة كبار المستعمرين طيلة اثنتي عشرة سنة لَمَا بقي نظام الأسد بعد كل ما ارتكبه ويرتكبه بحق الشعب السوري، لكنّ الفجاجة زادت أمام كارثة طبيعية خلفت كارثة إنسانية في منطقة منكوبة دون زلزال؛ لوفرة الأدوات التي تملكها الأمم المتحدة للتدخل والمساعدة بعيداً عن موافقة النظام المجرم^(١)، وسبق لها أن تدخلت في هايتي إثر زلزال ٢٠١٠ خلال ٢٤ ساعة رغم دمار مكتب

جاء زلزال ٦ شباط ٢٠٢٣ م حلقة في سلسلة زلازل ما زالت تضرب شعبنا السوري المكلوم منذ آذار ٢٠١١؛ ويكأنّ من قدر هذا الشعب أن يتعرض للنوائب والزلازل.

وما زال السوريون في كل ذكرى للثورة يقفون أمام هزة تعيدها سيرتها الأولى؛ فكيف تبدو الذكرى الثانية عشرة للثورة بعد أيام وأنقاض الزلزال تملأ الشمال السوري برائحة الموت، وما زالت الهزات الارتدادية تهزّ الأرض وما فوقها؛ فيشعر بها أناس في سوريا وتركيا وفقد الشعور بها آخرون لكثرتها ولآثار الصدمة النفسية للزلزال الأول على الناس؟ وهل من دروس نتذكر بها على أعتاب الذكرى الثانية عشرة؟

خذلان الأمم المتحدة وغيرها قد أعادها سيرتها الأولى:

تصاممت الأمم المتحدة ومؤسساتها المعنية عن أخبار الزلزال في سوريا، وتأخرت في إدخال أول

(*) دكتوراه في الدراسات الإسلامية والأدب العربي، رئيس جامعة المعالي الخاصة، باحث في مركز الحوار السوري.
(١) يُنظر: خبراء: إدخال المساعدات إلى سوريا لا يحتاج تفويض مجلس الأمن: موقع عنب بلدي enabbaladi.net.

السنوات الأولى للثورة، وجاءوا بقوافل تعدل الأمم المتحدة والمجتمع الدولي وزناً وتفوقه حباً؛ فتصدّروا قائمة الدول التي ساعدت تركيا، وكذلك تصدّروا قائمة الدول التي استطاعت تجاوز الحدود وإغاثة الشعب السوري المنكوب.

ونجحت الخوذ البيضاء!

باتت قبعات فريق الدفاع المدني السوري «الخوذ البيضاء» علامة مسجّلة للنجاح في عمليات الإنقاذ بعد الزلزال بشكل خاص، ولهم ترفع التحايا والثناءات؛ فما الدرس في نجاح يشهده الجميع؟

ليس درساً واحداً بل دروساً متعددة:

فأول ذلك: النظر في أسباب نجاح هذه المؤسسة الثورية من بين مؤسسات كثيرة أخرى في قطاعات متعددة على مدار اثنتي عشرة سنة؛ أليس من السذاجة بمكان النظر نظرة فرح عابرة إلى نجاح فريق في كارثة اضطربت فيها دول راسخة المؤسسات والبناء ووصلتها مساعدات وفرق إنقاذ من مختلف دول العالم؟! ودون تطويل ممل في واقع ما زال يتأرجح كحالنا وحال أرضنا مع الهزّات، ومع استحضار أهمية التوفيق من الله علينا أن نستحضر في تقييم نجاح الخوذ البيضاء: التخصص والتدريب؛ فالفريق يعمل منذ عام ٢٠١٣، وشعارهم: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وقطعوا أشواطاً بعيدة في التأهيل والتدريب وفق قواعد القانون الدولي^(١)؛ فكم من المؤسسات الثورية صمدت هذه المدة واستطاعت تطوير عملها والمحافظة على تخصصها، ثم سلمت من الانشقاقات والانقلابات والانقسامات على أنفسها؟

من السذاجة بمكان النظر نظرة فرح عابرة إلى نجاح فريق في كارثة اضطربت فيها دول راسخة المؤسسات والبناء ووصلتها مساعدات وفرق إنقاذ من مختلف دول العالم، بل حقهم التقدير والإكبار ودراسة التجربة وتعميمها على بقية المؤسسات

التنسيق الخاص بها هناك^(١)؛ لكنّ تلك هاييتي في البحر الكاريبي وهنا سورية الكرامة وسط تناقضات الحلفاء والأعداء. فما الدرس هنا؟

التذكير بأهم ما يكون في أي عمل، وبأهم شعار رافق الثورة منذ فجرها: «ما لنا غيرك يا الله»؛ ألم يسبق للثورة أن ناشدت المجتمع الدولي، وطالبت بحظر جوي وحماية دولية وبمنطقة آمنة^(٢)؛ فما جاءها إلا رجوع صدى صيحاتها، فرجع الشعب إلى نفسه وأخذ بأيدي بعضه البعض ووصل إلى السيطرة على نحو ٧٥٪ من سورية.

كانت أكبر المساعدات التي وصلت للمتضررين من الزلزال في الشمال السوري قادمة من دير الزور والرقّة والحسكة ومنبج، مزدانة بعقب الكرامة والنخوة والأخوة، وسبققتها قرى المحرر ومدنه؛ ورأى الشعب من أبنائه خير ما يحب في الإغاثة والنجدة والتعاون

واليوم خذته الأمم المتحدة ولم ترسل قوافل مساعدات، فجاءته قوافل لم يحسب لها حساباً من دير الزور والرقّة والحسكة ومنبج، وأرغمت سلطات الأمر الواقع على خلع الحدود وفتح معابر الزور بين أجزاء سورية، ووصلت إلى المناطق المنكوبة، وفضلاً عما فيها من عقب الكرامة والنخوة والأخوة فقد فاقت بعدد الشاحنات قوافل الأمم المتحدة ومؤسساتها «الأممية». وقبلها كانت نجدات قرى المحرر ومدنه من أرياف إدلب إلى الباب وإعزاز؛ حيث تقاطرت الحملات والشاحنات بالحب مع المساعدات إلى جنديرس وغيرها، ورأى الشعب من أبنائه خير ما يحب في الإغاثة والنجدة والتعاون، وليس هذا بجديد؛ فقد تداخلت في مناطقه الدماء، وقضى شهداء كثيرون في مناطق ليسوا منها لكنهم أحبّوها فنصروها وعملوا لها حتى قضوا فيها.

دون إنكار فضل الإخوة الأشقاء، خاصة من السعودية وقطر والكويت والبحرين؛ إذ استنفروا بحملات كالتالي كانوا يفتحون لها الأبواب في

(١) يُنظر: إلى جانب الإغاثة والإيواء؛ عشرة تحديات ملحة يجب التحضير لها عقب الزلزال - دروس مستفادة من زلزال هايتي ٢٠١٠، تقرير صادر عن مركز الحوار السوري sydialogue.org.

(٢) يُنظر: دراسة عن أسماء جمع الثورة السورية، موقع كبريت kebreit.wordpress.com.

(٣) يُنظر: موقع الدفاع المدني السوري؛ syriacivildefence.org، صفحة فيسبوك: SyriaCivilDefense.

ولا تخلو الصورة من بعض الفوضى أو الشكوى من توزيع الإغاثة واستئثار بعض ضعاف النفوس ببعض المساعدات أو ادخارها. وليس شيء من ذلك بغريب في نائبة كالزلزال مع غياب لوجود الدولة ومؤسساتها، فلطالما حصل مثل ذلك أو أسوأ في دول قوية مستقرة.

ومما تميز به مشهد إغاثة المتضررين من الزلزال دخول مشاهير الإعلام والمتطوعين للعمل في توزيع المساعدات باليد؛ ومع ما في هذا المشهد من جانب إيجابي للتراحم والعمل الإنساني فلا يُنكر أن فيها كذلك ترسيخاً للفوضى، فمثل هذه الأعمال الفردية دون تنسيق وترتيب تتسبب بفوضوية أو مناطقية في التوزيع، فضلاً عما حصل من امتهان وإساءة خلال التصوير والنشر!

والسؤال الذي يتكرر طرحه في كل كارثة تحل بالشعب المكوم: أما أن تكون هناك منصّة عمل إنسانية توحد الجهود وتنسق الأعمال الإغاثية؛ فتكون «جمارك إنسانية» لكل الأعمال والعاملين؟

إن فشلت بعض المنصات التي حاولت جمع الجهود وتنسيقها فلا ينبغي أن يكون هذا الفشل شماعة يعلق عليها استمرار عدم التنسيق، وغياب السلطة والإدارة الموحدة للمناطق المحررة ليس حجة لأحد وليس مدعاةً للسكوت.

لابد من توحيد الجهود وتنسيق الأعمال الإنسانية؛ وإن كان قد هزّ الزلزال المنظمات والأفراد فلا مبرر لاستمرار الفوضى وتكرار الأخطاء في التوزيع والعمل الإنساني، ولا بد من الضرب على يد كل من يحاول امتهان الناس وإيذاءهم في التصوير والتوثيق.

إذا فشلت بعض محاولات جمع الجهود وتنسيقها فلا ينبغي أن يكون هذا الفشل شماعة يعلق عليها استمرار عدم التنسيق، وغياب السلطة والإدارة الموحدة للمناطق المحررة ليس حجة لأحد وليس مدعاةً للسكوت

والدرس الثاني المتمم: التساؤل عن المؤسسات التي سلّمت كذلك من انحراف البوصلة وتغيير المسار، لاسيما ممن انفتحت مؤسساتهم على دول العالم؛ فهل كانت المؤسسات العسكرية والمدنية بالجرأة التي خرج بها مدير فريق الدفاع المدني السوري للتصريح بتخاذل الأمم المتحدة والمطالبة بمحاسبة المسؤولين عن تأخر إدخال المساعدات؟ وحينما يتعرّض للضغط والتهديد لكلامه ذاك يلجأ مجدداً إلى الشعب ويصرّح بما لاقى من التهديد⁽¹⁾، ويثبت على موقفه دون انبطاح كالعديد من المتصدّرين العسكريين والمدنيين؛ إلا إن أنكرنا أن كثيرين منهم باتوا يدافعون عن مصالح غيرنا أكثر من مصالح الشعب، وبات ينطبق على كثيرين «صاروا ملكيين أكثر من الملك»؛ وليس هذا في الجانب العسكري والسياسي فحسب، بل حتى فيما يخص المنظمات الإنسانية؛ فكم تميّع بعضها وتمايل وأسفر بحجة «التزام معايير العمل الدولي» والبُعد عن التصنيف والوصم بالإرهاب، والتذرع بحجة «إرضاء الداعم»!

والدرس الثالث: في صورة وزير الخارجية الأمريكية ومسؤولة المساعدات مع ممثلين عن فريق الخوذ البيضاء وإشادة الوزير بالفريق؛ وكذلك فعل أعضاء من حكومة ألمانيا فالتقطوا الصور مع الشباب الذين نزلوا إلى الميادين وأقاموا فعاليات لإيصال صوت المنكوبين في الأراضي المحررة، وهكذا صاحب الإنجاز والوجود على الأرض، يُجبر الآخرين على الاعتراف به واحترامه، بمن فيهم من يختلف معه.

وخاتمة دروس الدفاع المدني وحققها التقديم: دعم الحاضنة الشعبية ووقوفها معهم؛ فهم السّتر الذي يتعرى وينفضح من يبتعد عنهم.

الإغاثة والتصوير.. ودخول المشاهير!

الحمد لله على كل حال فيما وقع من الزلزال، ثم الشكر لكل غيور سارع فأغاثة وأعان، وقد أعاد هذا الزلزال للذاكرة الأيام الأولى للثورة بما فيها من بذل وتضحية وتكاتف بين الناس على ما بهم من شدة وحاجة وضرر، في صور تذكرنا ببذل الرعيل الأول من هذه الأمة، فما أعظم هذه النفوس وما أسمى همتها وأصلب عزمها.

(1) تُنظر تغريدات مدير فريق الدفاع المدني رائد صالح في حسابه على تويتر: twitter.com/RaedAlSaleh

بصير مي»، ويتناول آخرون بنحو: «يا أخي: ما أوسخ من النظام إلا المعارضة!»

وهذه الدعوى ليست جديدة؛ فهي من المقطوعة ذاتها التي تُعزف كلما هلك مشهورٌ ذو تأثيرٍ ممن يدور في فلك النظام فيتنطع بعض المتميعين: «الميت لا يجوز عليه إلا الرحمة... لم يكن عسكرياً يقتل»؛ ومَن الذي يزعم أن القاتل هو الذي يمكس البندقية أو يقود الطائرة ويرمي البرميل أو يُطلق الصاروخ فحسب!

لا يُدلس على الناس في محنة الزلزال بمثل هذا؛ لتميع الموقف مع النظام وأعوانه، أو إزالة الحواجز أو رفع الحظر وتيسير دخول الإغاثة تحت زعم دعم المتضررين؛ فإن كانت دعوةٌ لحبِّ إخواننا.. فالسوريون ليسوا بحاجة لمن يدعوهم لذلك لأننا نحبُّ إخواننا، وبلدنا واحد وديننا واحد وهويتنا واحدة، لكننا نبرأ إلى الله من كل قاتل ومَن أعان القاتل ولو بكلمة، وبتقرب إلى الله ببغضه. نحن ثوار كرامة وطلاب حق وحرية، ولا مكان للرماديين المتميعين ممن يسوي بين المجرم والضحية، ولا ثورة دون أخطاء؛ ولا يمكن التسوية بين نظام الأسد والمعارضة.

الذين قضوا بإجرام النظام أضعاف من قضى تحت الركام، وعدد من تعذب وتشرد عشرات أضعاف نتائج هذا الزلزال، فكم قضى من الزلزال أمام من قضوا خلال اثنتي عشرة سنة من حرب نظام الأسد على شعبه السوري الأبي؟!

إذا كان الكلام عن الأخطاء ونحن على أبواب الذكرى الثانية عشرة، واقفين على أطلال الوطن من الزلزال الأخير المدمر؛ فإننا لا ننسى أن الذين قضوا في مساكن مؤقتة ومتداعية كانوا مهجرين من مناطقهم بسبب الأسد وحلفائه، وأن البيوت متداعية من وقع قصفهم وإجرامهم، وأن البنية التحتية السيئة والمرافق الخدمية التي عجزت عن تلبية حاجات الناس قبل الزلزال إنما هي من عمل نظام الأسد وعبثه بحياة الناس وسرقات أعوانه.

كما لا ننسى أن الذين قضوا بإجرام النظام أضعاف من قضى تحت الركام، وأن عدد من تعذب

الحلول الترقيعية؛ دمار البيوت من دمار السياسة الخربة!

من الصور المفجعة للزلزال انهيار مشاريع سكنية كبرى في تركيا، قابلها في الشمال السوري دمار بعض مشاريع الإيواء التي ما زالت صور ومشاهد افتتاحها تتكرر على صفحات وسائل التواصل، فهل عندنا القدرة على مُساءلة المنظمات التي نافست غيرها لتأخذ مشاريع الإيواء بتكاليف مالية منخفضة بدعوى نقل الناس من الخيام سريعاً؛ لتنهال عليهم المساكن الحديثة التي لم تأخذ بمعايير السلامة الهندسية؟! وهل عندنا القدرة كذلك على محاسبة المجالس المحلية التي تغافلت عن المخالفة في الإنشاء، وكانت سبباً في ضخامة الكارثة بشهادة نقابة المهندسين الأحرار؟ وكيف نسمح بعدم متابعة المقاولين العشاشين المقامرين بحياة الناس وسلامتهم؟

كشف الزلزال من جديد أن الحلول الترقيعية في الإيواء لا تنفع، مع أننا خبرنا ذلك في السياسة والتعليم وغيرها؛ فبعد كل التنازلات من متصدري المشهد السياسي وانخفاض سقف المطالب من زوال نظام الأسد المجرم بكل أركانه إلى درك اللجنة الدستورية^(١)، والترقيع في التعليم الذي أفرز جامعات وهمية أكلت أموال الناس بالباطل وبعاتهم الوهم وشهادات الزور! ولن أطيل التمثيل من كل القطاعات حتى لا نغرق في الألم ونحن نحاول بعث الأمل.

دستورنا واضح في تأكيد أن ما يصعد فرعه في السماء هو ما كان أصله ثابتاً؛ وهذا دستور عام في كل شيء، فلا نضحك على أنفسنا بمشاريع عجل تأتي مخدوجة شواء بحجة إغاثة الناس وإيوائهم، وما أجمل تلك المباني القديمة التي صمدت في الزلزال وقاومت رغم السنين في سوريا وتركيا؛ فهل ذلك لأنها تنتمي إلى زمن جميل كان فيه الغش أقل وكانت القلوب أنقى؟!

«أحبوا بعضكم»... دعوى باطلة بلبوس الحق:

مع الهزات الارتدادية للزلزال تغيب معالم وتخرج خبايا وخفايا، ومما خرج من تلك الخبايا والبلابيا دعوى «أحبوا بعضكم» للتعاطف مع «المتضررين في مناطق سيطرة نظام الأسد»، ويتابعون في الشرح بنحو: «البلاء يعم... والد ما

(١) يُنظر: قطار الحل السياسي في سوريا: خطة مسير متغيرة ومسار بلا وجهة، موقع مركز الحوار السوري sydialogue.org

والأتاوات؟ وكم من أناس تطوّعوا للعمل في الإنقاذ والطبابة وتوصيل المساعدات!

إنّ استقرار قطاعات العمل يعطيها فرصة للمساعدة؛ فلا يُعتب على جامعة لأنها لم تُسقط الرسوم الجامعية عن الطلبة بسبب الزلزال، ولكن يُعتب علينا جميعاً ألا نتعاون ليكون عندنا تعليم جامعيّ مستقرّ يكون مع المؤسسات فيه هوامش للمساعدة وإعفاء الطلبة عند الضرورة، كما يكون عندنا تعليم مدرسيّ يُعزّ فيه المعلم ولا يُبتزّ بما يشبه السلة الإغاثية تحت مسمى «راتب»! ونتقاسم مسؤولية إيجاد قطاع صحيّ متكامل يستوعب خريجيناً في مشافينا ومراكزنا الصحية، ليقوموا بالخدمات الطبية اللازمة في الاستقرار والأزمات. ويتحمل قادة الفصائل والمسؤولون «الرسميون» مسؤولية الفشل حتى اليوم في عدم وجود صندوق واحد لموارد المعابر يكون منه نصيب للطوارئ وإغاثة الناس في النائبات كالزلزال؛ مع أن برميل النفط تقضم منه أكثر من جهة حتى يصل من معابر «قسد» إلى المواطن المنكوب دون زلزال! ومع أن الشاحنات لا يكاد يرى لها آخر غالباً في كل معبر من باب الهوى إلى جرابلس!

لعل الذكرى الثانية عشرة على وقع الزلزال المدمر تحمل مفاجآت أكثر تفاؤلاً وإيجابية في تحقيق ما نصبو إليه منذ الصيحات الأولى لثورة الحرية والكرامة؛ وإن كانت لا تأتي دون اجتهاد ودأب وعمل.

خاتمة:

ما زلنا منذ اثنتي عشرة سنة تحت أنقاض الزلازل الأسيديّة، وقد فتكت بنا أشد مما فتك بنا زلزال شباط؛ فلم نعجز ولم نستسلم، ورفعنا أصواتنا بالرفض لكل دعوات المصالحة مع المجرمين مهما علا الأنين. لكننا لا ندفن رؤوسنا في الرمال كي لا نرى أخطاءنا وعيوبنا؛ بل نصرّح ونصرخ بها حتى نتجاوزها، فإننا نستحق الأفضل، وإننا نستطيع الأفضل بعون الله؛ وكم رأينا في نائبة الزلزال الأخير من خير بدا وكأنه يتربّ زلزالاً بهذه الشدة حتى ينبعث ويجدد فينا الأمل بدوام الخيرية في الشام وأهل الشام.

وتشرد عشرات أضعاف نتائج هذا الزلزال، فما هذا المنطق الأعوج؟

فكم قضى من الزلزال أمام من قضوا خلال اثنتي عشرة سنة من حرب نظام الأسد على شعبه السوريّ الأبّي!

لعل الذكرى الثانية عشرة على وقع الزلزال المدمر تحمل مفاجآت أكثر تفاؤلاً وإيجابية في تحقيق ما نصبو إليه منذ الصيحات الأولى لثورة الحرية والكرامة؛ وهكذا كلما ازدادت حلقة الليل أذن ذلك بقرب بزوغ الفجر

«لا جداد فوق ثلاث»؛ بل مبادرات وحلول:

ما تقدّم ذكره عن جهود الخير المباركة في عموم المناطق، وعن نجاح العديد من المشاريع والمؤسسات تأكيداً للخروج من لعن الظلام إلى إضاءة النور؛ فنحن في مصاب كبير منذ سنوات، ولا بد أن نخرج من الجداد إلى العمل بالحلول، وخير الحلول ما نبع من واقعنا واستفاد من التجارب الأخرى وليس العكس. ومع تتالي الزلازل والهزّات الأرضية لم يعد مقبولاً الانغلاق في مراسم الحداد والحزن فحسب؛ فمما يعجل بتحقيق حلّ مقبول يُنهي مأساة اللاجئين والمهجّرين والمعتقلين والمفقودين: إنجاز نموذج حوكمة رشيد في المناطق المحررة، وهذا النموذج لا يُبنى دفعة واحدة ومن جهة واحدة؛ فإنما هي أركان كأركان البيت من التعليم إلى القضاء إلى الصحة إلى التجارة والاقتصاد إلى الإنشاء والإعمار، وانتهاءً بالأمن والجيش وليس الحصر فيهما فحسب.

ما الذي تستطيع أن تقدّمه قطاعات مؤسساتنا للمنكوبين؟ وكم تبرع كبار القادة والتجار وهم يرون ويسمعون عامة الناس يتبرعون بما يجدون رغم القلة والفاقة؟! ولا يصحّ تبرير العجز بالحصار والحرب وعدم الاستقرار؛ فمن البلاد البعيدة وراء البحار طار إخوان لنا هم من كبار الأطباء من أصحاب الإحساس والغيرة، مع أنهم اضطروا للانتظار أياماً عند الحدود ريثما فتحت لهم للعبور إلى الداخل السوريّ. وفي أفقر أحياء المهجّرين كانت تُجمع التبرعات للمتضررين؛ فأين منهم الموسرون وقادة الفصائل وأصحاب المعابر



دعوة

ملامح الخطاب الدعوي في الكوارث والمصائب

أ. عبد الرحمن رجو^(*)

مع كل كارثة تصيب المسلمين يتجدد الجدل حول الخطاب الدعوي الصحيح الذي يوجّه للناس، فمن الناس من يُغلب جانب الرجاء؛ فيجعل الكوارث محض خير وكفارة ورفعة، ومنهم من يُغلب جانب الخوف؛ فيجعلها عقوبات صرفة ويربطها بذنوب ومعاص معينة، ولكل استدلالات وتعليقات، والحق بينهما في توسط واعتدال، وفي هذا المقال جمع ملامح الخطاب الدعوي المنشود في الكوارث والمصائب

أولاً: مراعاة حال المنكوبين:

الناظر في خصائص الدعوة الإسلامية يجد أنها تراعي في المدعويين النواحي النفسية والعقلية والاجتماعية والوجدانية... والنفس البشرية في ظل هذه الأحداث العظيمة يطراً عليها تقلبات فكرية وأزمات نفسية، مما يوجب على المخاطب لهم أن يراعي ذلك، وأن يتخير من الكلام ما فيه التخفيف عنهم، والتهديّة من الضغوط التي تعصف بهم، وفي كتاب ربنا سبحانه وتعالى نجد لفظة (البشارة) تتصدّر الخطاب للمصابين والمنكوبين، قال تعالى:

﴿وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ بَشَئٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

للکلمة أثر كبير في نفوس الناس، فهي تتغلغل إلى أعماق النفس البشرية، ويكون لها التأثير في مسار التفكير وردود الأفعال وتوجيه المشاعر؛ إذ الكلمة تمس الروح والعقل والقلب، وإذا كان المتكلم معروفاً بالدعوة إلى الله تعالى كان الخطاب أكثر تأثيراً وأشدّ وقعاً، وإذا كان الناس في ظروف استثنائية كحدوث الزلازل المروعة والأعاصير المدمرة والفيضانات المهلكة والأمراض الفتاكة؛ فإن الحاجة تزداد إلى أن يكون الخطاب الموجّه إلى الناس مدروساً، والكلمة منتقاة؛ وذلك لتحقيق الأثر الإيجابي في المنكوبين والمصابين.

وفي هذا المقال أقدم بعضاً من الملامح المطلوب مراعاتها والاهتمام بها حين الخطاب الدعوي في مثل هذه الظروف:

(*) باحث في الدراسات العربية والإسلامية.

قبل أن يخلق الله الخليقة ويبرأ النسمة؛ فلا يهلك الإنسان نفسه على ما فاتته مما طمحت له نفسه وتشوقت إليه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢١) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿[الحديد: ٢٢-٢٣].

ويدعو الناس إلى الوقوف معهم، حتى يتحقق الحديث: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ نَدَّاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى) (٦).

ومن ذلك إعاتتهم بما يحتاجون إليه من طعام وغيره؛ فإنه لما جاء خبر وفاة جعفر رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (اصنعوا لأهل جعفر طعاماً، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم) (٧).

على الداعية أن يجعل خطابه للمصابين والمكالمين خطاباً رحمة وشفقة، خطاباً يربط على قلوبهم، ويمسح دموعهم، ويصبرهم، ويجبر خاطرهم؛ وذلك باختيار كلمات طيبات، تريح قلوبهم، وتخفف من لوعتهم

ثالثاً: التفاؤل والأمل في الخطاب:

يضيق العيش وتسود الحياة إذا فقد الأمل، ولهذا فإنه لا بد أن يكون الخطاب الدعوي في هذه الظروف منطلقاً من التفاؤل والأمل، بعيداً عن روح اليأس والقنوط، فمهما اشتدت الكرب، وتزاحمت المصائب، فالمسلم ينظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وينظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الكبائر: (الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله) (٨). فالإياس والقنوط من روح الله من كبائر الذنوب، يلزم دفعها، ومساعدة أهل البلاء على النجاة منها.

وفي كلام النبي صلى الله عليه وسلم توجيه إلى هذا، وبشارة للصابرين، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللَّهُمَّ اجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلَفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا) (١).

وقال صلى الله عليه وسلم فيمن أصيب ببدنه: (إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، ثم صبر، عوضته منهما الجنة) (٢).

في ظل الأحداث العظيمة والكوارث الكبرى يطرأ على النفس البشرية تقلبات فكرية وأزمات نفسية، مما يوجب على من يخاطبهم أن يُراعي ذلك، وأن يتخير من الكلام ما يخفف عنهم، ويهدئ من الضغوط التي تعصف بهم

ثانياً: الرحمة والشفقة في الخطاب:

على الداعية أن يجعل خطابه للمصابين والمكالمين خطاباً رحمة وشفقة، خطاباً يربط على قلوبهم، ويمسح دموعهم، ويصبرهم، ويجبر خاطرهم؛ وذلك باختيار كلمات طيبات، تريح قلوبهم، وتخفف من لوعتهم، ومن ذلك:

أن يذكر لهم ثواب الله تعالى للصابرين الصادقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قال الأوزاعي: «ليس يوزن لهم ولا يُكَّال، إنما يُعْرَف لهم عُرفاً» (٣). والجنة جزاء الصابر المحتسب عند فقد محبوب من ولد أو والد، قال صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صَفِيهً من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة) (٤).

وأن يذكرهم بحال الدنيا، فهي زاهية زائلة فانية، والخير كل الخير في التخفيف منها؛ ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة) (٥).

ويذكرهم بقضاء الله وقدره، فعموم المصائب التي تصيب الناس، قد كتبت في اللوح المحفوظ، من

(١) أخرجه مسلم (٩١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٣). والمراد بحبيبتيه: عينيه.

(٣) تفسير ابن كثير (٨٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٤).

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٦١)، ومسلم (١٨٠٤).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

(٧) أخرجه أبو داود (٣١٣٢) والترمذي (٩٩٨) وابن ماجه (١٦١٠).

(٨) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، رقم (٣٩١) وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجاله موثقون.

ملاحح الخطاب الدعوي في الكوارث والمصائب

الحكمة في
الدعوة إلى
الله

بث التفاؤل
والأمل

الرحمة
والشفقة في
الخطاب

مراعاة حال
المنكوبين

مراعاة
الأولويات
في الخطاب

تربية الوعي
وتنميته

استثمار
الأحداث
للتأليف بين
المسلمين

رابعاً: الحكمة في الدعوة إلى الله:

من الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في هذا الموقف أن يبدأ الداعية بذكر شيء من الحكم التي فيها تثبيت للناس على دينهم، وتقوية لقلوبهم على مواجهة هذه الخطوب العظيمة؛ ومن ذلك قوله ﷺ: (إِنَّ عَظْمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظْمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ...) (٣)، ولما سئل: يا رسول الله، أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: (الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتَلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرَكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ) (٤).

ومن الحكمة أن يتحین الداعية الفرص المناسبة للنصح والتوجيه ودلالة الناس إلى الخير؛ هذا الرسول الرحيم ﷺ يأتي غلاماً يهودياً، قد أصابه المرض، فيجلس عند رأسه، ويدعوه إلى الإسلام، فينظر الغلام إلى أبيه ... فرق الأب لابنه وقال: أطع أبا القاسم. فأسلم الغلام، وخرج رسول الله مسروراً، وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار) (٥).

وينظر إلى نبي الله يعقوب، فمع مرور السنين الطويلة على فقد ابنه يوسف عليها الصلاة والسلام فإنه لم يفقد الأمل من رحمة الله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وحيثما يبشّر الإنسان بأن الموت تحت الهدم شهادة، فإن ذلك يريح قلبه، ويخفف من آلامه، ويدفعه للصبر والتحلي به، والتفاؤل باللاحق بمنزلتهم؛ قال ﷺ: (المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيد) (١).

وليتأمل في هذا الحديث العظيم: فعن أنس بن مالك ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَيَدُّ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةً، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا فَلْيَفْعَلْ) (٢). فمن فقد أحبته فليصبر، وليحتسب، وليعلم أنهم ذهبوا إلى الله الرحيم، وأن الله تعالى منحه فرصة للعمل لنفسه وللجاهد في إصلاح آخرته.

(١) أخرجه أبو داود (٣١١١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٩٨١). قال المحققون: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

ويحذرون من مغبة السلبيّة وخذلان الأخ لأخيه، وأن يكون لهم دور بارز في إيجاد مسارات للبذل والعمل، واستثمار هذه الأحداث في لمّ شمل الأمة وتوحيد صفها.

سادساً: تربية الوعي وتنميته:

وينبغي أن يكون الخطاب هادفاً إلى تربية الوعي وتنميته عند الناس، فيتدرج الداعية بالخطاب، ويتخير أحسن الكلام، حتى يبلغ أفضل المطلوب في تزكية النفس وبناء وعيها.

يبين للناس أن الابتلاء في هذه الدنيا سنة ثابتة ماضية، قال تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣]. والابتلاء مقصود، سواء كان بالخير أو الشر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٥﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

على الداعية أن يتخير أحسن الكلام، حتى يبلغ أفضل المطلوب في تزكية النفس وبناء وعيها، فيبين أن الابتلاء في هذه الدنيا سنة ماضية، وأن الله أنزل البلاء لحكم كثيرة كلها خير للمؤمن؛ فهي رسائل تنبيه وتخويف لهم، ليزداد المحسن في إحسانه، ويعود المذنب إلى ربه تائباً نادماً

ويبين أن هذا البلاء أنزله الله تعالى لحكم كثيرة، منها: رفع درجات المؤمنين الصابرين، ومنها تمحيص المؤمنين وتبين الصادقين من الكاذبين، ومنها تكفير خطايا المؤمنين ومحو سيئاتهم، ومنها العقوبة لأهل الكفر والنفاق؛ لتطمئن قلوب المؤمنين، ويرتدع من يشاء من الكافرين، ومنها استعتاب العباد لعلهم يرجعون عن غيهم ويتوبون إلى ربهم، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

حين تنزل المصائب والأحداث الكبرى ينبغي على الأمة أن تنفر جميعاً، كل حسب طاقته وقدرته، يمدون يد العون إلى إخوانهم، ويقدمون إليهم ما يحتاجون، ويترفعون عن فتح نوافذ الخلاف والشقاق والتنازع

خامساً: استثمار الأحداث في التأليف بين المسلمين:

من الملاح الواجبة في الخطاب أن يكون مساهماً في جمع الأمة وتوحيدها، ساداً نوافذ الفرقة والتناحر، ومركزاً على ما يجمع ويؤلف ... فالوقت وقت التعاون والتبازل والتعاقد، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢]، وقال ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (١).

قال الإمام النووي: «هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاقد في غير إثم ولا مكروه» (٢).

وقال القاضي عياض: «والألفة إحدى فرائض الإسلام، وأركان الشريعة، ونظام شمل الدين» (٣).

وبناء على هذا: فإنه على الأمة حين نزول ووقوع المصائب والأحداث العظيمة أن تنفر جميعاً، كل على حسب طاقته وقدرته، يمدون يد العون إلى إخوانهم، ويقدمون إليهم ما يحتاجون، ويترفعون عن فتح نوافذ الخلاف والشقاق والتنازع، ويكون شعارهم قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١]. وقول النبي ﷺ: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ...) (٤).

وعلى الدعاة أن يكونوا في المقدمة في ذلك، يحرصون كل الحرص على توظيف هذه الأحداث الجسام في إيقاظ مشاعر الإخاء بين المسلمين، ودفعهم للتفاعل الإيجابي، ونصرة المسلم لأخيه،

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٩/١٦).

(٣) فيض القدير، المناوي (٧٤/١).

(٤) متفق عليه، البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

ومن الأولويات في هذا الحدث التوجه إلى الشباب والاستماع إلى طرُوجاتهم وما يدور في أذهانهم من أفكار مضطربة، ولدتها هذه الظروف العصبية، فيسمعونهم، ويجيبون على استفساراتهم ... ثم يأخذ الدعاة بأيديهم إلى بر الأمان، إلى جنة الإيمان والتسليم لله تعالى.

سخر الله سبحانه هذا الكون بما فيه من المنافع للإنسان، وعلى الناس أن يأخذوا بسنة السببية، ويعملوا على تحقيق أفضل صور الأمان والحياة الكريمة، فيعتنى بالأبنية، وتُجعل قوية مقاومة لحوادث الزلازل وغيرها، مع الإيمان التام بقضاء الله وقدره

ومن الأولويات تبصير الأمة بالسنن الإلهية، ومنها سنة السببية وسنة التسخير^(٢)، فالله سبحانه وتعالى سخر هذا الكون بما فيه من المنافع لهذا الإنسان، وعلى الناس أن يأخذوا بسنة السببية، ويعملوا على تحقيق أفضل صور الأمان والحياة الكريمة، فيعتنى بالأبنية، وتُجعل قوية مقاومة لحوادث الزلازل والعواصف وغيرها، مع التسليم الكامل لأمر الله تعالى والإيمان التام بقضائه وقدره.

ومن الأولويات في هذا الحدث العظيم بيان حقيقة هذه الدنيا، والحذر من الركون إليها، وتوطين النفس على الاستعداد الدائم للانتقال إلى الحياة الباقية، كما أوصى النبي ﷺ عبد الله بن عمر (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ...»^(٤). فنظلم مستعدين للزلزلة الكبرى، والانتقال إلى الدار الآخرة.

هذا، والله تعالى أسأل أن يرحم موتى هذا الزلزال، وأن يكتبهم في الشهداء، وأن يعافي المصابين، ويسكن قلوب الناجين الخائفين، ويسبغ على أهل المصائب الصبر والسلوان، ويرزقنا وإياهم الرضا والتسليم، والحمد لله رب العالمين.

ويذكر الداعية أن من محبة الله تعالى الخير للعباد أنه يرسل هذه الآيات العظيمة؛ إذ هي رسائل تنبيه وتخويف لهم، ليزداد المحسن في إحسانه، ويعود المذنب إلى ربه تائباً نادماً، قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

ويحرص الدعاة على ربط الناس في هذه الأوقات بالله تبارك وتعالى؛ هذا رسول الله ﷺ ترسل إليه إنبتة تخبره بأن طفلها قد أشرف على الموت، فيرسل ﷺ إليها معلماً ومذكراً بأن الذي أعطى الطفل هو الله، والذي أخذه هو الله، وأن هذا أجله: (إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عندة بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب)^(١).

هذا، ويسعى الموفقون إلى بذل الجهود في دفع أسباب البلاء، وتبصير الخلق بذلك، ومن هذه الأسباب: التضرع إلى الله تعالى بالدعاء، وانكسار القلب والتذلل وإظهار الضعف إليه جل وعلا، ولزوم الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله، والتحلي بالصبر والثبات والرضا بقضاء الله تعالى، ولزوم تقوى الله تعالى في جميع الأمور.

من الأولويات التي تراعى في مثل هذا الحدث: التوجه إلى الشباب والاستماع إلى طرُوجاتهم وما يدور في أذهانهم من أفكار مضطربة، ولدتها هذه الظروف العصبية، فيسمعونهم، ويجيبون على استفساراتهم، ثم يأخذ الدعاة بأيديهم إلى بر الأمان، إلى جنة الإيمان والتسليم لله تعالى

سابعاً: مراعاة الأولويات في الخطاب:

عند حدوث النكبات وتغير الأحوال يحتاج الإنسان إلى تقديم الأولويات على الفرعيات، والأساسيات على الثانويات، ومن أهم الأولويات في هذا الحدث العظيم:

تبصير الناس على مصابهم، والربط على قلوبهم، وتبشيرهم بالأجر عند بارئهم، فتضمّد جراحهم بمثل قوله ﷺ: (يُودُّ أَهْلَ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ، لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ)^(٢).

(١) متفق عليه، البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)، وابنة النبي صلى الله عليه وسلم هي زينب رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، والمقاريض: جمع المقراض، وهو آلة للقطع.

(٣) مقال «أولويات الدعاة زمن الكوارث» د. خالد حنفي.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

حول العدالة الإلهية في المصائب والكوارث

د. عماد الدين خيتي (*)

ارتبطت المصائب والكوارث بحياة الإنسان أفرادًا وجماعات منذ القدم، ومع احتمالها على الكثير من الآلام والأحزان إلا أنها لا تخرج عن تقدير الله تعالى وأمره وعلمه، ومن هنا فإن حدوثها يثير الكثير من الأسئلة والاستفسارات التي تاهت فيها العقول وحاتت فيها الأبواب، وفي هذا المقال عرض لأشهر هذه التساؤلات التي تتعلّق بجانب عدالة الله تعالى في إيقاعها

مقدمات أولية:

المقدمة الأولى: لا يخلو من يطرح أمثال هذه الأسئلة من أن يكون أحد اثنين: مؤمنًا بالله تعالى، أو غير مؤمن به.

فالذي لا يؤمن بالإله ابتداءً، ولا يصدّق بأخباره، ولا يسلم بعلمه وحكمته، ولا يطيع أوامره، فالحديث معه عن عدالة الإله والحكمة من تقدير المصائب والابتلاءات غير مجدٍ، إلا إن كان من باب التوضيح وربط الأفكار ببعضها، وليس هذا مجاله.

أما المؤمن بالله تعالى، المصدّق بأخباره، المطيع له، فهذا هو الذي يتوجّه الحديث إليه في توضيح وبيان مسألة عدل الله تعالى، وهل تتناقض مع ما يقع من أحداثٍ ومصائب.

عند كل حادثة أو مصيبة تتجدّد التساؤلات: هل من العدل أن تقع هذه الخسائر والضحايا؟ لماذا يصيب المسلمين كل هذه المصائب والحوادث وتقع بهم هذه الخسائر مع أنهم مؤمنون بالله تعالى؟ أليس من العدل أن يحظى المسلم ببعض النعيم في هذه الدنيا؟ ويلقى جزاء طاعته؟.

ما ذنب الأطفال والأبرياء الذين يفقدون أقاربهم أو تُبتر بعض أعضائهم؟ وما ذنب الناس الذين يفقدون بيوتهم وأعمالهم؟ وغير ذلك من الأسئلة.

وحيث إنّ الموضوع متشعب، وتدخّل في نقاشه العديد من المسائل التي تصل إلى حدّ مناقشة فكرة وجود الإله، لذا سأقصر الحديث عن مسألة: هل يتناقض العدل الإلهي مع وقوع المصائب والكوارث أم لا؟

(*) باحث ومتخصص في الدراسات الإسلامية، نائب رئيس مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك»^(٤).

”
 مهما بلغ ذكاء الإنسان فإنه يبقى عاجزاً عن الإحاطة بكامل حكمة الله في خلقه وتدبيره، فشطرها الأعظم سيبقى خافياً على البشر، وهو من علم الغيب؛ لذا لا يجوز للمسلم أن يعلّق إيمانه أو تسليمه بمعرفة هذه الحكمة أو إدراكها، فقد لا تظهر له، وقد لا يظهر بعضها إلا بعد زمن طويل

المقدمة الرابعة: مع ما سبق ينبغي ألا يغيب عن الذهن أنّ الإنسان مهما بلغ من العلم والذكاء والإدراك وتوسّعت معارفه فسيبقى عاجزاً عن الإحاطة بكامل حكمة الله في خلقه وتدبيره، فشطرها الأعظم سيبقى خافياً على البشر، وهو من علم الغيب الذي استأثر الله به؛ لذا لا يجوز للمسلم أن يعلّق إيمانه أو رضاه أو تسليمه بمعرفة هذه الحكمة أو إدراكها، فقد لا تظهر له، وقد لا يظهر بعضها إلا بعد زمن طويل.

بل الواجب على المسلم، أن يؤمن ويُسلم حتى تتحقق له الراحة والطمأنينة والسكينة، ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وعندما حاول بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام البحث فيما لا يمكن للبشر الإحاطة به أو معرفة الحكمة منه؛ نهاهم الله تعالى عن الخوض فيه، فقال لنوح عليه السلام حينما سأله عن كفر ابنه: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطِكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦-٤٧].

وهذا موسى عليه السلام كلم الله ومن أولي العزم من الرسل، عندما ظنّ أنّه أعلم من على الأرض بين الله له من خلال الأحداث مع الخضر أنّه لا أحد يحيط بجميع العلم، ولا بحكمة الله من

المقدمة الثانية: من آمن بالله تعالى لا بدّ أن يؤمن ويصدّق بما أخبر به عن نفسه، وما أخبر عنه رسوله ﷺ من لوازم ربوبيته وألوهيته والإيمان به. وقد أخبر تعالى في كتابه الكريم أنّه عدلٌ يحبُّ العدلَ ويأمر به، وأنه منزّه عن الظلم، يكرهه وينهى عنه.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠]، قال ابن كثير في تفسيره: «أي يحكم بالعدل»^(١).

وقال تعالى نافياً الظلم عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وفي الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا)^(٢).

وقال تعالى في الأمر بالعدل والنهي عن الظلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فالواجب على المسلم التسليم بعدل الله تعالى واليقين به، وأنّه ليس بظلام للعبيد؛ فإنّ ذلك من لوازم الإيمان به وبرسوله ﷺ.

المقدمة الثالثة: البحث عن الحكمة مما يقدره تعالى من مصائب وابتلاءات، وعن كيفية فهم آيات الله الشرعية والكونية على ضوء عدل الله؛ لزيادة الاطمئنان، فهذا جائز لا إشكال فيه، بل هو داخل في التفكّر والفهم الذي حث عليه الشرع، وأخذ العبرة والعظة، وقد صدر البحث عن الحكمة والسؤال عنها من بعض الأنبياء، كإبراهيم عليه السلام حينما سأل ربه أن يرّيه كيف يحيي الموتى، فأجابه ربه: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيُظْمِنَ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، كما وقع من الصحابة رضي الله عنهم حينما قالوا للنبي ﷺ: «إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَبْعَازُنَا أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ»، قَالَ: (وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟) قَالُوا: «نَعَمْ»، قَالَ: (ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ)^(٣).

قال النووي رحمه الله: «فقوله ﷺ: ذلك صريح الإيمان ومحض الإيمان معناه: استعظامكم الكلام

(١) تفسير ابن كثير (١٢٤/٧).

(٢) أخرجه مسلم، حديث رقم (٢٥٧٧).

(٣) أخرجه مسلم، حديث رقم (١٣٢).

(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي (١٥٤/٢).

تقديراته، وأن ما قد يكون ظاهره الفساد قد يكون باطنه الرحمة والإحسان.

كيف نفهم العدالة الإلهية في حدوث الكوارث والمصائب؟

إذن: ومع إيماننا بأن الله عدلٌ يحب العدل وينهي عن الظلم؛ فكيف نفهم العدالة الإلهية مع ما تخلفه المصائب والكوارث من مأس وألم؟ من مرض وقتل وفقد وتشريد وجوع؟

الحياة ليست مقصورة على هذه الدنيا فحسب، بل إن شقها الأكبر والأهم هو في الآخرة، لذا فإن تحقق العدالة الإلهية المطلق بصورتها النهائية هو في الآخرة، وهذا أمر يرتبط بتصوير الحياة والغاية منها، ومن أراد النعيم والجزاء في الدنيا فإنه لم يدرك معناها ولا المقصود منها

* أولاً: الحياة ليست مقصورة على هذه الدنيا فحسب، بل إن شقها الأكبر والأهم هو في الآخرة، لذا فإن تحقق العدالة الإلهية لا يقتصر على الدنيا، بل إن تحققها المطلق بصورتها النهائية هو في الآخرة، وهذا أمر يرتبط بتصوير الحياة والغاية منها؛ فالحياة الدنيا دار تكليف وابتلاء وامتحان، وليست دار قرار ولا جزاء، والآخرة هي دار القرار والجزاء، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: فيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها.

فمن أراد النعيم والجزاء في الدنيا فإنه لم يدرك معنى الحياة ولا المقصود منها.

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأكدار والأقذار

ومكلف الأيام فوق طباعها متطلب في الماء جذوة نار

في الدنيا قد يتحقق جانب من العدالة الإلهية بمجازاة الطائع ومعاقبة الظالم، لكن لا يحصل كل طرف على كامل حقه فيها، بل يؤجل الله تعالى

استيفاء الحقوق ليوم القيامة لحكم يريدتها، ﴿وَلَا تُحَسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ولعل من أهم هذه الحكم: استمرار الحياة الدنيا وعدم انتهائها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

بل إن النعيم والبلاء في الدنيا لا قيمة له في الآخرة، كما قال ﷺ: (يؤتى يوم القيامة بأنعمة أهل الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه في النار غمسة، فيغمس فيها، ثم يقال له: أي فلان هل أصابك نعيم قط؟ فيقول: لا، ما أصابني نعيم قط، ويؤتى بأشد المؤمنين ضرًا وبلاءً، فيقال: اغمسوه غمسة في الجنة، فيغمس فيها غمسة، فيقال له: أي فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء، فيقول: ما أصابني قط ضر ولا بلاء^(١)).

أما في الآخرة فتتحقق العدالة بأكمل صورها، ويأخذ كل شخص ما يستحقه من جزاء دون ظلم أو نقصان، قال تعالى: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

ومن ابتلي في الدنيا ولم ينعم فمن كمال عدل الله تعالى أن يعوّضه في الآخرة، كما في الحديث: (يؤد أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرصت في الدنيا بالمقاريض^(٢)).

* ثانياً: في الدنيا نعيم عظيم حقيقي، يختص الله به أهل الإيمان والطاعة، ويتمثل في طمأنينة القلب، وهدوء النفس، وراحة البال، ويتحقق هذا النعيم في الإقامة على طاعة الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا النعيم هو الحياة الطيبة التي جاء ذكرها في القرآن: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

(١) أخرجه ابن ماجه، حديث رقم (٤٣٢١).

(٢) أخرجه الترمذي، حديث رقم (٣٤٠٢).

كيف نفهم العدالة الإلهية في ظل حدوث الكوارث والمصائب؟

١. العدالة الإلهية تتحقق بصورتها النهائية في الآخرة

٢. في الدنيا نعيم عظيم حقيقي، يتحقق بالإقامة على طاعة الله

٣. البلياء والمصائب من سنن الله تعالى وهي عامة لكل البشر

٤. المصائب تنطوي على منح وفوائد كثيرة تدرك بالنظر العام

٥. الأحزان والمصاعب ضرورية للشعور بالأفراح والنجاحات

٦. الله تعالى لا يحب المصائب والكوارث لكنه يقدرها لحكم ومصالح يحبها

٧. الابتلاء بالمصائب هو أحد نوعي الابتلاء، والنوع الآخر هو الابتلاء بالنعيم

كما تورث القوة ورباطة الجأش والصمود في هذه المواقف، يطرح الجبن والحرص جانباً، فقد جاء في الحديث: (واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)^(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، مع زهاب الحزن والغم، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

من أشد أنواع البلاء: الابتلاءات المعنوية، كالحرمان من الهداية، وضنك العيش، فقد يبدو الإنسان سعيداً أو معافى وهو يتقلب بين نيران القلق والتيه وعدم الراحة، حتى تضيق عليه نفسه وأنفاسه

وهو أعظم من نعيم المال والجاه، وتتضاءل أمامه متع الدنيا وملذاتها، من افتقده عاش ضيق النفس مضطرباً وإن حاز الدنيا وما فيها؛ لهذا كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما نهون به علينا مصيبات الدنيا)^(١).

والمطمأنينة تورث الرضا، والتي لا يحصل للنفس سعادة ولا هناة إلا بها، قال ابن القيم رحمه الله: «وطريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جداً، موصلة إلى أجل غاية، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها: همة عالية، ونفس زكية، وتوطيئ النفس على كل ما يرد عليها من الله^(٢)، وهو تعريف عميق للغاية، جعل النفس والإيمان هما مفتاح الرضا، فإذا اقتنعت النفس وفهمت أصبحت مشقة القلب في صروف الدهر أمراً هيناً يسيراً، لأنها في تلك الحال تدرك حقيقة الجائزة والفوز في الآخرة، وحقيقة تقدير الخالق سبحانه وتعالى لمجريات الأمور.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (١٧٣/٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

* **ثالثاً:** البلياء والمصائب والشدائد ليست خاصةً بالمسلمين بل هي عامة لكل البشر، وتشمل حتى الحيوانات وسائر المخلوقات، وهي من سنن الله في تدبير الكون والتصرف فيه، فكل مظهر من مظاهر الآلام والمصائب مرتبط بالغاية الأساسية والحكمة الإلهية لهذه الدنيا وهي الابتلاء والتمحيص.

وما أصاب المسلمين منها فقد أصاب غيرهم أضعافه، ونظرة على تاريخ البشرية منذ القدم ندرك ما أصاب الأقوام الآخرين من ابتلاءات ومصائب كونية كالزلازل والبراكين والفيضانات، أو بأيدي البشر أنفسهم كالحروب ونحوها.

في المصائب والكوارث منح وفوائد كثيرة، فوجودها يدفع الإنسان للبحث والتنقيب فتظهر الكشوفات والصناعات ويتقدم العلم، كما أن التعامل معها ومواجهتها يورث في الإنسان صفات القوة والإقدام، ويكسبه الوعي والتقدم في التفكير، وتنمية الطاقات، ومن ثم رقيته وتقدمه

قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

* **رابعاً:** المصائب والكوارث تنطوي على منح وفوائد كثيرة، لكن المقياس في مثل هذه الأمور لا يكون من خلال نظر الأفراد وحساباتهم وأعمارهم، بل من خلال النظر العام، فحالة الإنسان وعمره قد لا يكفي لتبين الحكمة من بعض التقادير، التي قد تحتاج لأجيال أو سنوات طويلة حتى تظهر فوائدها، فكم نتج عن الكوارث الطبيعية والحروب من فوائد كثيرة اجتماعية، أو اقتصادية، أو مناخية، وغيرها، ولم بتبين ذلك إلا بعد عقود طويلة، نتيجة التغيرات التي حدثت في تلك المناطق، ومنها الهجرات التي تحدث أثراً كبيراً في السكان وتركيبتهم النفسية والاجتماعية.

وكثير من الرخاء ورغد العيش الذي يراه المسلم في بلاد الكفار هو نعيم قصير الأمد، سبقه قرون من المحن والمصائب والبلياء، فلا يصح غض النظر عنها وإهمالها.

ومثل ذلك يقال في الفوائد التي تعقب الفيضانات على التربة والزراعة، والمعادن التي تخرج بسبب الزلازل والبراكين، وغير ذلك كثير.

كما توعد الله سبحانه وتعالى الكفار بنزول أنواع البلاء والعذاب عليهم بسبب كفرهم وإعراضهم عن الهداية فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]. قال ابن كثير رحمه الله: «أي: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحqاف: ٢٧]»^(١).

فوجود الكوارث والمصائب يدفع الإنسان للبحث والتنقيب؛ فتظهر الكشوفات والصناعات ويتقدم العلم، فلولا الأمراض لما تقدم الطب، ولولا الكوارث البحرية لما تقدمت صناعة السفن وعلوم الملاحة، ولولا المجاعات لما تقدمت علوم الزراعة والغذاء، وهكذا.

ثم إن البلياء والمصائب لا تختص بالجانب المادي المنظور، بل تمتد إلى جوانب كثيرة قد لا تكون منظورة كالتوفيق، والبركة، والصحة، ونحو ذلك، فكثير ممن ظاهره التمتع بالنعم وعدم الابتلاء قد يكون مبتلىً بأنواع أخرى أشد من بلاء الأمراض والكوارث، كعقوق الأبناء، أو فشل الحياة الزوجية، أو زهاب بركة الرزق، أو الأمراض، ونحو ذلك.

فخوض غمار التعامل مع الكوارث ومقاومتها ومواجهتها يورث في الإنسان صفات القوة والإقدام والشجاعة، ويكسبه زيادة الوعي والتقدم في

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٧).

ينشقى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم»^(١)، كما جاء في الحديث القدسي: (وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)^(٢). قال ابن تيمية: «الرَّبُّ يَكْرَهُ أَنْ يَسُوَّ عِبْدَهُ وَمَحْبُوبَهُ، فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ يَكْرَهُ الْمَوْتَ؛ لِيَزِدَاكَ مِنْ مَحَابِّ مَحْبُوبِهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْمَوْتِ، فَكُلُّ مَا قَضَى بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ، وَلَا بَدَّ مِنْهُ؛ فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ؛ لِمَا سَبَقَ بِهِ قِضَاؤُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارَهُ لِمَسَاءَةِ عِبْدِهِ، وَهِيَ الْمَسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ، فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهِهِ، مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهِهِ»^(٣).

وَمَرْجِعُ هَذَا إِلَى الْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي لَا يُلْزَمُ مِنْهَا مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرِضَاهُ بِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فالله يوقعها لكونها جارية على سننه ولما يعقبها من خير توصل إليه.

كما أَنَّ وجود الظلم والظالمين في هذه الدنيا ليس رِضًا من الله بهم ولا إقرارًا لهم، ولا غفلة من العدالة الإلهية عنهم، بل ليبيي الناس بعضهم ببعض ويختبر عزمهم وجهدهم في الدفاع عن المظلوم، وهو سبحانه ربما أحر عقوبة الظالم ليوم القيامة ليكون أشد وأبقى.

ومثل ذلك ما يفعل الشخص بمحبوبه من آلام وأوجاع ليست مقصودة في ذاتها بل لما يرتب عليها من منافع وفوائد، كتأديب التربية، قال الشاعر:
فقسا ليزدجروا ومن بك راحمًا
فليقس أحيانًا على من يرحم

الله تعالى يبتلي بالمصائب كما يبتلي بالنعمة، فهو يعطي ليختبر ويحاسب، كما يبتلي بالمنع ليختبر ويحاسب، أما لماذا أعطى هذا ولماذا منع هذا؟ فهذا مما لا سبيل للعلم به ولا إدراكه، وهو من علم الغيب الذي اختص الله تعالى به

* **سابعًا:** الابتلاء بالمصائب هو أحد نوعي الابتلاء، فالله تعالى يبتلي بالمصائب كما يبتلي بالنعمة،

التفكير، وتنمية الطاقات، ومن ثم رقيته وتقدمه، وإلا فالخمول والكسل وتلاشي الفكر والحضارة. وكما قيل: الأمم التي تريد أن تتقدم لابد أن تدميها المصائب والكوارث.

الأحزان والآلام ملازمة للإنسان في جميع أمور حياته، لا يخلو منها أمر، لكنها تتضاءل في عينه مقابل مصالح عاجلة مظهرية يراها فيستعذب تلك الآلام ولا يقف عندها، فكيف إذا كانت المصالح والفوائد مؤكدة، وبوعده من رب السماوات والأرض؟

* **خامسًا:** المصائب والكوارث من سنن الله تعالى في تدبير الكون، فقد قضى جل شأنه أنه ليس في هذه الدنيا فرح دون حزن، ولا أمن دون خوف،... وهذا شامل لكل شيء، فتحصيل المال لا بد فيه من الشقاء والتعب وبذل النفس، وتحصيل الولد فيه آلام الحمل والمخاض والولادة، وتحقيق النجاح لا بد فيه من مشاق العمل والكد... والاستطباب لا بد فيه من تجرع مر الدواء، وربما استئصال الأعضاء، وبناء الأوطان وتحقيق أمنها لا بد فيه من القتال، مع ما فيه من إزهاق الأنفس والآلام الكبيرة المترتبة عليه.

بل إن دخول الجنة لا يكون إلا بالمرور على الموت وما فيه من الشدائد والفتن، فالأحزان والآلام ملازمة للإنسان في جميع أمور حياته، لا يخلو منها أمر، لكنها تتضاءل في عينه مقابل مصالح عاجلة مظهرية يراها فيستعذب تلك الآلام ولا يقف عندها، فكيف إذا كانت المصالح والفوائد مؤكدة، وبوعده من رب السماوات والأرض؟

* **سادسًا:** ما يقع بسبب المصائب والكوارث من آلام وأحزان ليس محبوبًا لله تعالى في ذاته، لكنه تعالى يقدره لما يرتب عليه من مصالح أخرى محبوبة له، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، قال السعدي: «وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأَيُّ شَيْءٍ يَفْعَلُ بِعَذَابِكُمْ؟ فَإِنَّهُ لَا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣١/١٨).



﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنِّيَا تُرْجَعُونَ﴾
 [الانبيا: ٣٥]، قال ابن عباس رضي الله
 عنهما: «نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة
 والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر،
 والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى
 والضلال»^(١).

﴿مِنْ نُظْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْآخَرَى﴾ وَأَنَّهُ
 هُوَ أَعْتَى وَأَفْتَى﴾ [النجم: ٤٣-٤٨].
 وقد يتمنى الإنسان الخير أو الابتلاء بالنعمة،
 لكن لا يعلم هل هو خير له أم لا^(٢)، فليس الإعطاء
 دليل العافية ولا العاقبة الحسنة، كما مر!

وختامًا:

فإنَّ عدالة الله تعالى -كسائر صفاته وأفعاله
 تعالى- أعظم من أن يحيط بها بشر، أو يُدرك
 كُنْهها إنسان، فالواجب على المسلم التسليم بها
 والتصديق، وعدم النظر إليها من زاوية الخاصة،
 أو بنظرة جزئية يسيرة لا يوضح معناها ولا يكشف
 كنهها، وأن يفوض أمرها لله تعالى، وينشغل بما
 هو قادر عليه داخل في قدرته ومعرفته، ومحاسب
 عليه مجازي، وهو: كيفية التعامل مع أقدار الله
 تعالى في حال المصائب والكوارث، والاستعداد لها
 بتقوية الإيمان واليقين، والاستعانة بالله على ذلك.

فكما أنَّ المرض والفقر والخوف ابتلاء، فكذلك
 الصحة والمال والأمن ابتلاء، كما ورد في الحديث: (لا
 تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما
 أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه
 وفيم أنفقته، وعن جسمه فيم أبلاه)^(٣)، فالله يعطي
 ليخبر ويحاسب، كما يبتي بالمتع ليختبر ويحاسب.

أما لماذا أعطى هذا ولماذا منع هذا؟ فهذا مما لا
 سبيل للعلم به ولا إدراكه، وهو من علم الغيب الذي
 اختصَّ الله تعالى به، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾
 وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى

(١) تفسير ابن كثير (٣٠٠/٥).

(٢) أخرجه الترمذي، حديث رقم (٢٤١٧).

(٣) مما يشيع على الألسنة وورد في الآثار - ولا يصح نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم: قول «إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو افتقر لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، وإن أدبر لعبادي بعلمي بقلوبهم إنني أعلم خبير». ولهذا الكلام نصيب كبير من الصحة، فلا يعلم الغيب إلا الله.

هل يمكن للبشر أن يصنعوا زلزالاً؟

م. فداء ياسر الجندي (*)

يحلو لبعض المفتونين بنظرية المؤامرة أن يجعلوا كل حدث يصيب المسلمين مؤامرةً صنعها الأعداء لينالوا من أمة الإسلام ويقضوا عليها، وكان بعض ذلك متفهمًا في الجوانب التي ينشط فيها البشر كالإعلام والتعليم والسياسة والاقتصاد وغيرها، أما أن يصل الأمر إلى نسبة حدوث الكوارث الطبيعية إلى الأعداء، فهذا مما لا يقبله العقل ويرفضه العلم

مدخل:

المقاتلات والمقاطع المتداولة عن أنّ أمريكا هي التي صنعت الزلزال الأخير في تركيا وسورية مضحكة مبكية.

هي مضحكة لأنّ من كان عنده الحد الأدنى من العلم بالجيولوجيا وطبقات الأرض، سيعلم أنّ هذا أمر مستحيل من الناحية العلمية.

ومبكية لأنّ البعض تنطلي عليهم مثل هذه الترهات، فيتناقضونها ويروجونها، ولا يعلمون أنّ أعداءنا يستغلّون أيّ فرصة ليضحكوا علينا ويوهمونا بأنّ أمريكا هي ربنا الأعلى!

وقبل أن نبيّن لماذا هي مضحكة مبكية، دعونا نأخذ لمحة سريعة عن كيفية حدوث الزلازل.

كيف تحدث الزلازل؟

تتكون الكرة الأرضية من ثلاثة أجزاء رئيسية: القشرة الخارجية، والقشرة الداخلية، والنواة.

القشرة الخارجية هي الطبقة الصلبة التي نعيش عليها، وما نراه من سهول وجبال ووديان، وهي التي تمتدّ من البر وحتى قاع المحيطات والبحار. وتبلغ سماكتها القصوى في المناطق الجبلية حوالي ٧٠ كيلومترًا، وعلى اليابسة في المناطق السهلية ٤٠ كيلومترًا، في حين لا تتجاوز سماكتها في قاع المحيطات ٥ كيلومترات، علمًا أنّ ارتفاع أعلى سلسلة جبال في العالم، وهي جبال الهيمالايا، يقارب ٩ كيلومترات (٨٨٤٥ متر).

والقشرة الداخلية هي طبقة صخرية مرنة تتوضع تحت القشرة الخارجية، سماكتها حوالي

(*) كاتب من سورية.

لتسخن من جديد وتصد من جديد هكذا، تمامًا مثلما يتحرك الماء في وعاء أثناء تسخينه على موقد.

وبما أن القشرة الداخلية هي في تماس من أعلاها مع القشرة الصخرية للأرض، وبما أن القشرة الخارجية كما أسلفنا ليست غلافًا مصمًا واحدًا يغلّف الأرض، بل هي مقسمة إلى صفائح قارية متعدّدة، تطفو على سطح القشرة الداخلية المرنة، فإنّ القشرة الداخلية لا تجد متنفسًا للطاقة الهائلة التي تتراكم فيها نتيجة التسخين، إلا في المناطق الفاصلة بين صفائح القشرة الخارجية، فتتحرك تلك الصفائح في مناطق تماسها مع بعضها، بسبب طاقة القشرة الداخلية وحركتها، فتصطدم ببعضها، أو تتباعد عن بعضها، أو ينزلق بعضها فوق بعض، وهذا ما يؤدي للزلازل.

هل يمكن صناعة الزلزال؟

والآن: هل يمكن أن يكون هذا الزلزال بسبب قنبلة نووية؟ أو غيرها من الطرق الحديثة؟

والجواب: أن هذا الزلزال كان على رقعة قُدّرت مساحتها بمئة وعشرين ألف كيلو متر مربع على الأقل، ومتوسط سماكة القشرة الأرضية الصخرية فيها يزيد عن خمسين كيلومترًا، (سماكة ستة من جبال الهيمالايا موضوعة فوق بعضها) أي إن حجمها ستة مليارات متر مكعب، ووزنها ثمانية عشر مليار طن!

وللتقريب: هي كتلة يزيد وزنها وحجمها عن وزن وحجم مئات الجبال، فهل تستطيع قنبلة نووية مزروعة في البحر، (كما يزعمون) أن ترحزح هذه الكتلة قيد أنملة إذا علمنا أن مدير إدارة الكوارث في تركيا صرّح بأنّ الطاقة المنبعثة من الزلزال تعادل ٥٠٠ قنبلة نووية؟!

يكفي ما قلناه لنعتبر خبر تدبير أمريكا للزلزال غير ممكن وغير واقعي، وكلّ ما ذكره مجرد أخبار وهمية لا أصل لها ولا دليل على حدوثها ولا علاقة لها إطلاقًا بالزلزال، ولا بالعلم، والردّ عليها إضاعة للوقت؛ لأنّها في غياب الدليل والبرهان والمصدر الموثوق ليست سوى لغو، كان الواجب على من سمعه أن يعرض عنه، فنحن قوم علمنا ربنا عندما نسمع خبرًا أن نبتين، ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوهُ﴾ [الحجرات: ٦]، وأن نقول لمن جاؤونا به: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، فإذا تبين لنا أنه لغو أن نعرض عنه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

٢٨٠٠ كيلومتر، وقد اكتسبت مرونتها من الحرارة الشديدة التي تصلها من نواة الكرة الأرضية.

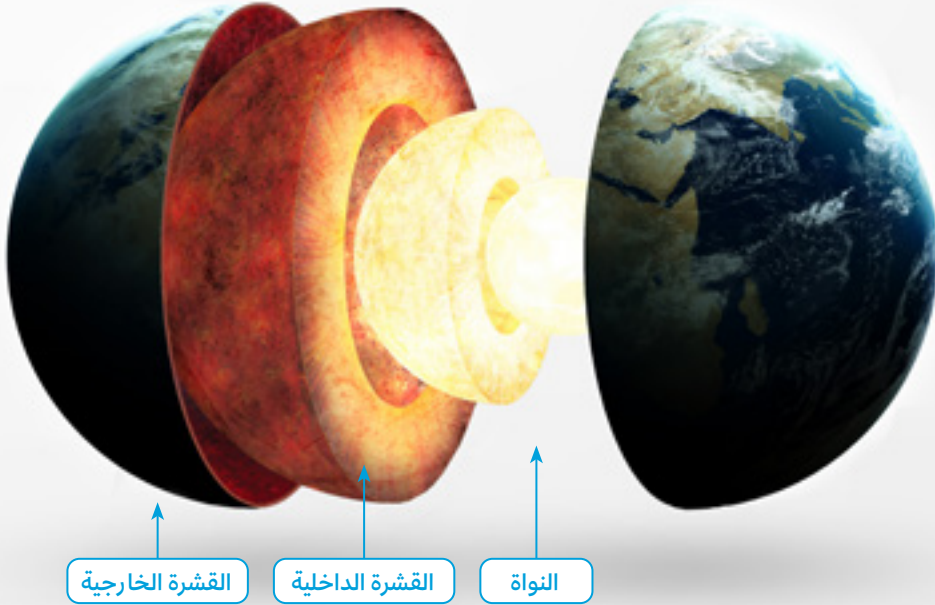
والنواة هي كرة نصف قطرها حوالي ٢٤٠٠ كيلومتر تتكون من معادن وصخور منصهرة شديدة الحرارة، تتراوح حرارتها ما بين ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ درجة مئوية، تحيط بها القشرة الداخلية.

القشرة الخارجية للأرض ليست غلافًا متماسكًا بل هي صفائح قارية ضخمة تتحرك فوق القشرة الداخلية، التي تعوم بدورها فوق النواة المنصهرة، والتي لا تجد متنفسًا للطاقة الهائلة التي تتراكم تحتها إلا في المناطق الفاصلة بين صفائح القشرة الخارجية، مما يؤدي لتحركها اصطدامًا أو تباعدًا، أو ينزلق بعضها فوق بعض، وهذا ما يؤدي للزلازل

وقد كان العلماء يظنون حتى منتصف القرن الماضي أن القشرة الأرضية الخارجية، هي قطعة واحدة متماسكة ثابتة ساكنة، ولكنهم اكتشفوا أن هذه القشرة ليست متماسكة من حيث البنية، وليست ثابتة ساكنة من حيث الحركة، بل هي مقسمة إلى صفائح قارية ضخمة، منفصلة، تتحرك فوق القشرة الداخلية، وتكاد تكون في حركة دائمة، لكن لا نشعر بها، لأنها بطيئة جدًا لا تزيد عن بضعة سنتيمترات في السنة، باستثناء حركتها أثناء الزلازل، كما سنبيّن في السطور التالية.

إنّ القشرة الداخلية في تماس مباشر في أسفلها مع النواة المنصهرة، أي هي معرضة لتسخين دائم، ويؤدي هذا التسخين إلى أمرين مهمين، الأول: أن القشرة الداخلية تتمتع بالمرونة والليونة بسبب الحرارة الشديدة التي تصلها من النواة، والتي هي أشبه بموقد هائل يقوم بتسخينها، والثاني: أنه بسبب هذه الحرارة وبسبب ليونة القشرة الداخلية -حيث تكون أقرب إلى السيولة منها إلى الصلابة- تكون في حركة دائمة، تشبه حركة الماء في وعاء نضعه على موقد، لكن بوتيرة أبطأ، فالطبقات السفلى منها الملامسة للنواة، تسخن بشدة فتصعد للأعلى باتجاه القشرة الخارجية للأرض، حتى إذا وصلت إلى أعلى ولامست القشرة الخارجية، انخفضت حرارتها، فتعود للهبوط باتجاه النواة،

الطبقات الرئيسية للكرة الأرضية



وهل يعقل أن تزرع أمريكا ما يعادل ٥٠٠ قنبلة نووية لتصنع الزلزال؟ وأين؟ وكيف؟ وما الدليل على ذلك؟ وأين الإشعاعات النووية التي انطلقت من هذه الانفجارات؟ لو حدث ذلك فعلاً لما بقي أحد حياً في تركيا وفي بلاد الشام، ليس من الزلزال، ولكن من تبعات الإشعاع النووي.

كما أنّ الانفجار النووي ليس له هزات ارتدادية، هو يحدث وينتهي في لحظات، فهل ما تسجّله مقاييس الزلازل هو انفجار في لحظات؟ إنّ الهزات الارتدادية التي ما زالت مستمرة بعد أسبوعين من الزلزال (عند كتابة هذه السطور)، وقد تستمر شهوراً حتى تتخامد، هي دليل قاطع آخر على أنّ الخبر مخلوق لا أصل له لا سيما أنّ منها هزات قوية جداً وكأنّها زلزال جديد.

ولماذا لا تنتهي أمريكا الحرب في أوكرانيا بقنبلة من هذا النوع إن كانت قادرة عليه؟

وهل زلزال حلب الذي حدث عام ١١٣٨ ودمّر المدينة وقتل حوالي ربع مليون إنسان كان أيضاً من صنع أمريكا؟

وهل الزلازل العشر التي حصلت في تركيا على مدى السنوات الخمسين الماضية، وكانت شدتها ما

الأخبار تؤخذ مع أدلتها وبراهينها من المراكز والمؤسسات العلمية المتخصصة، وليس من مقالات كتبها من لا ناقة لهم في العلم ولا جمل، خصوصاً في حق أمة الإسلام التي علمها ربّها أن تتبيّن عندما تسمع خبراً، وأن تعرض عن اللغو والتخرّص

بناء على ذلك: فإنّ أخباراً كهذه نأخذها مع أدلتها وبراهينها من المراكز والمؤسسات العلمية، وليس من مقالات كتبها من لا ناقة لهم في العلم ولا جمل، ومع ذلك، إليكم بعض النقاط التي تؤكد كذب هذه الإشاعات:

فمثلاً، مما ورد أنّ بعض الدول الأوروبية أغلقت سفاراتها في تركيا قبل الزلزال! فما علاقة هذا بالزلزال؟ هذا له قصة أخرى تتعلق بجريمة حرق المصحف تلك الأيام، وخوف الدول الأوروبية من ردّة فعل الشعب التركي المسلم على ما فعلوه؛ لأنّ حرق المصحف الشريف حصل أمام السفارة التركية، في تحدّ وقح للمسلمين بشكل عام، وللأترك بشكل خاص، كما أنّ مقرّات السفارات والقنصليات في أنقرة واسطنبول بعيدة جداً عن مركز الزلزال ولم تتأثر به إطلاقاً.

ونحن لا نقول اهجرُوا منصات التواصل، بل نقول استخدموها في نشر ما يفيد.

«**الثاني:** أننا نحن المسلمين، قومٌ علّمنا ربنا عندما نسمع خبراً أن نتبين، وأن نُعرض عن اللغو، وبناءً على ذلك: فإنّ أخباراً كهذه، مع غياب الدليل والبرهان والمصدر الموثوق ليست سوى لغو كان على مَنْ سمعه أن يُعرض عنه، ومَنْ لم يفعل فهو مخالف لهذا المنهج الذي بيّنه لنا ربنا سبحانه وتعالى، فعلينا إذن أن نحرص على أخذ العلم من أهله، من مراكز الأبحاث والخبراء الحقيقيين المعروفين، ومن مراصد الزلازل العالمية، حتى لو كانت في بلاد غير المسلمين، ومن الهيئات الرسمية ذات المصداقية، مثل إدارة الكوارث والطوارئ التركية، أما أن نأخذ المعلومات من أي مقال نراه على الشبكة، ونترك المصادر العلمية، فهذا لا ينبغي أن يكون دأب أمة (فتبينوا).

«**والثالث:** أنّ تناقل مثل هذا الخبر على نطاق واسع، وممن نحسبهم مثقفين، ومن أصحاب شهادات عليا، يكشف عن قصور في المعرفة العلمية بين مثقفينا، فما بالكم بالعوام منّا، فترى أحدهم لديه حظ من الثقافة في الفنّ والرياضة والاقتصاد بينما حظّه من المعرفة العلمية ضحل قليل، لأنّها ليست في قائمة اهتماماته، لدرجة أنّه ينسى حتى ما تعلّمه من علوم في المدرسة، وكما ذكرنا آنفاً: لو أنّ لدى مَنْ تناقلوا الخبر بعض المعرفة في علوم الجيولوجيا وطبقات الأرض لضحكوا من هذا الخبر بدلاً من أن يجعلونا نضحك من تصديقهم له.

«**والرابع:** أنّ البعض منّا ما زالوا يعتقدون للأسف، أنّ كل شيء في هذا العالم يسير بأمر أمريكا، ولو قيل لهم إنّ أمريكا تخطط لتجفيف البحر أو لإغراق القارات لصدّقوا. وهذا مصدره على الأغلب أمران: ضعف الإيمان، وعقدة «الخوaja».

وختاماً..

سواء كان أحدنا من أنصار نظرية المؤامرة أم لم يكن، الأصل عند قراءة ما تقدّمه إلينا الشبكة بشكل عام، ومثل هذه المقالات والآراء بشكل خاص، أن نتبين صدقية وموثوقية المصدر، ثم أن نعرض ما نسمعه على العلم والعقل والمنطق، وعلى أهل الاختصاص، قبل أن نصدقه ونتبناه ونشاركه.

بين ٦ و ٨ على مقياس ريختر من صنع أمريكا؟ وهل زلزال (توهوكو) في اليابان، الذي بلغت شدته ٩ على مقياس ريختر كان أيضاً من صنع أمريكا؟ وهل الزلازل التي سجلها التاريخ على مدى القرون من صنع أمريكا؟ فليحترم عقولنا من اختلق الخبر وكتب عنه وروج.

وكذلك ما قيل عن مشروع «هارب» وعلاقته بالزلزال، والضوء الأزرق الذي رافق الزلزال ودلالته على علاقة المشروع به، فكل ذلك أوهام لا حقيقة لها ولا أصل.

فالضوء الأزرق هو ظاهرة جوية تظهر في السماء في المناطق ذات النشاط الزلزالي، ولا تقتصر على الزلازل فحسب، بل تظهر مع البراكين كذلك، وقد تم رصد هذه الظاهرة في العديد من مناطق العالم، ومنذ سنوات طويلة.

وأما مشروع هارب فهو برنامج علمي لا يملك القدرة على التحكم بالطقس ولا إحداث الزلازل ولا غيرها، وما يشاع عن علاقته بالزلزال محض أوهام، وقد تحدث في ذلك العديد من العلماء والمختصون.

شبكات التواصل الاجتماعي سلاح ذو حدين، والمسلم الفطن يستخدمها في التواصل النافع، ويتجنب النشر العشوائي للأخبار دون تحقق، سواء كان ذلك من باب التخويف والتحذير أو البحث عن الإعجابات والمتابعات

معضلة غياب التحقق والتثبت:

أما لماذا نعتبر هذا الخبر مبكياً، فلأنّ تناقله دون تحقق وتأكّد في وسائل التواصل ومن مثقفين ومتعلمين، بل وتبني بعضهم له، ودفاعهم عنه، يدلّ على أمور مزعجة يحتاج كلّ منها إلى دراسة وبحث، لمعرفة أسبابه ووضع الحلول لها لتداركها.

«**الأول:** أنّ الكثيرين عندما يقرؤون خبراً فيه شيء من الغرابة والخروج عن المألوف يسارعون إلى نشره، دون تأكّد وتحقيق، رغبة في نشر الجديد، أو نشر معلومة خطيرة في ظنهم، وربما بحثاً عن الإعجابات والمتابعات التي أصبح جمعها هدفاً يهون في سبيل تحقيقه نشر التوافه والغرائب، ويا ضيعة الأوقات التي يمضيها البعض على تلك المنصات في سبيل حصد الإعجابات والمتابعات،



تذكية

جماليات التوجيهات الإسلامية عند الابتلاءات

د. مضر محب الدين^(*)

الإسلام دينٌ عظيم، وجمالياته لا تقتصر على جانب واحد، فضلاً عن التوحيد والنجاة في الآخرة، يتضمن جوانب تجعل صعوبات الحياة أسهل وأيسر، والمصائب أمراً يمكن تحمّله، بل تجعل المسلم باحثاً عن مواطن الرحمة في الأقدار المؤلمة، ليعيش بذلك حياةً كريمة رضية مطمئنة. هذه المقالة تتناول هذه الجوانب والتوجيهات وجمالياتها

قرونها، الذين خاطبهم الله ببعض ما سيختبرون به بقوله: ﴿وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أخبر الله المؤمنين أنّ الدنيا دارٌ بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر وبشّره فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، ثم أخبرهم أنه فعل هكذا بأنبيائه وصفوته، لتطيب أنفسهم فقال: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالصَّرَاءُ وَرَزَلْوُا﴾»^(١).

لكن حقيقة ما ظاهره النعمة، كحقيقة ما ظاهره القلة والفقر، ولا يعني إكرام الله لك بعرض دنيوي أنه رضي عنك بالضرورة، ولا يعني إنزاله مصيبة عليك أنه غاضب منك بالضرورة، فما نخاله شراً قد يتحول لخير كبير، وما نخاله خيراً قد ينضوي تحته شر عظيم.

الرحمن الذي خلق الإنسان، قسّم حياته إلى دارين، الدنيا وهي دار الامتحان والابتلاء، والأخرى وهي دار الجزاء والثواب والقرار، وهي الحياة الحقيقية، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والله سبحانه لم يرتض الحياة الدنيا -التي وصفها باللهو واللعب- جزاءً للمؤمن، وإنما ادّخر له جزاءه في دار البقاء الخالدة.

فنحن نعيش الحياة باختباراتها وابتلاءاتها التي لا تنتهي، فتتكرّر وتعاود الكرّة مرة بعد أخرى، فتطحن الصالحين والطالحين على حدٍّ سواء.

والابتلاءات التي تصيب الأمة الإسلامية لا تقتصر على العصاة، بل وقعت حتى في خير

(*) دكتوراه في العقيدة، مدير إقليمي في جمعية تاج لتعليم القرآن الكريم.
(١) تفسير الطبري (٤٨٧/٢) و(٧/٣).

ثانياً: الاقتداء بالأنبياء فهم الأشدُّ بلاءً:

وكون الأنبياء أشدَّ الناس بلاءً له وجهان، الأول: لأنهم قدوة للبشر في كل شيء، ومنه الصبر والشكر والرضا بأقدار الله، والثاني: كون البلاء يتحوّل بالإيمان إلى خير ورفعة، وهم صلوات ربي عليهم أجدرُّ الناس بهذا الفضل، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، سألت رسول الله صلى الله عليه وآله: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ فقال: (الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، فَيَبْتَلِي الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ رَقِيقَ الدِّينِ ابْتَلِيَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ صُلْبَ الدِّينِ ابْتَلِيَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، قَالَ: فَمَا تَزَالُ الْبَلَايَا بِالرَّجُلِ حَتَّى يَمْشِيَ فِي الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)^(١).

وقد يقرأ إنسان قول الله لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] فيظن أن موسى عليه السلام سيصبح ملكاً ناعم الملبس ناعم العيش، دون كلل أو تعب، ثم لو تتبّع حياته منذ الطفولة فسيجد الخوف والحزن والترقب والهرب والرهق والتعب والتية، فالابتلاء طريق الاصطفاء.

ويكمن جمال هذا التوجيه في لجوء الناس إلى الأنبياء؛ ليثبّتوهم بحالهم ومقالهم عند البلاء، ولتبقى سيرتهم نبراساً تتبّعه الأجيال المؤمنة، وتهتدي بها قلوب العباد في كل بلاء ينزل. قال ابن القيم رحمه الله: «فإنه سبحانه كما يحميهم -يعني الأنبياء- ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم: ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أمهم وخلفائهم إذا أودوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم. ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم»^(٢).

ومن ذلك جمال التوجيه إلى النظر لمن هم أشد منا بلاء، ففيه فائدة قبل وقوع البلاء بالتهيؤ له، وتوطين النفس لاستقباله، ودفع الجزع من البلاء، وحمد الله على السلامة منه، فإذا وقع البلاء وأنت تستذكر من هو أشد منك بلاء ثبتك الله وحلاك بالصبر.

وهذا الابتلاء نفسه قد يكون بالشكر وقد يكون بالخير؛ قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له)^(٣).

ولابد من التمييز بين أسباب نزول البلاء وكثير منها غيبي، وطرق دفع هذا البلاء، والدروس المستفادة منه، وما الواجب علينا بعد نزول البلاء. والشريعة قد فرقت بين ذلك كله، مما لا مجال لاستيعابه، وسنكتفي بجماليات ما وجهتنا إليه الشريعة عند نزول البلاء، وكيف استطاعت هذه التوجيهات أن ترتقي بالعبد المسلم من فظاعة وبشاعة ما يراه من بلاء، إلى عالم جميلة طبيعته جميلة مآلاته؟ فيحقق سعادة الدارين.

لا يعني إكرام الله لك بعرض دنيوي أنه رضي عنك بالضرورة، ولا يعني إنزاله مصيبة عليك أنه غاضب منك بالضرورة، فما نخاله شراً قد يتحوّل لخير كبير، وما نخاله خيراً قد ينضوي تحته شرٌ عظيم

أولاً: الابتلاء لا يستهدفك وحدك بل هو سنة تشمل جميع البشر من بدء الخلق:

فالبلاء يشمل كل من سكن هذه الحياة الدنيا، فهو سنة كونية تشمل المؤمن والكافر قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَوِيغًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، منذ عهد آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] وعلى المؤمن استشعار أن الأيام دول بين الناس جميعاً ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهذا البلاء قد يتشابه في ظاهره، لكنه يختلف في أسبابه ونتائجه، فهو لا يكون إلا خيراً على المؤمن، أما الكافرون المعرضون، إن أصابتهم السراء بطروا، وإن أصابتهم الضراء أشروا، فخابوا وخسروا.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في (السنن الكبرى) (٧٤٨١)، وأحمد (١٤٩٤) واللفظ له.

(٣) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية (٤٥٢/٢).

بَدَّخَرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: إِذَا نَكَّرْتُ؟ قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ^(١).

ومعرفة أن الدعاء من قدر الله تعالى، فيدعو لرفع عنه البلاء وصراف شر ما يخشاه. قال النبي ﷺ: (لا يرد القدر إلا بالدعاء)^(٢).

والاشتغال بالدعاء والذكر، قبل وقوع البلاء وعنده وبعده من أشرف الأعمال، فقبل وقوع البلاء يُحَصِّنُ المسلم نفسه، فيستشعر حفظ الله ورعايته له في كل وقت، وعند وقوع البلاء يكون ذكره ودعاؤه حفظاً له ومُصَبِّراً له عند الصدمة الأولى، وبعد وقوع البلاء يحصنه ذكره ودعاؤه واسترجاعه وحوقلته، من الهموم واستجلاب دواعيها وتعظم له الأجر، وتعيينه على الاستشفاء والعلاج الروحي والبدني.

المسلم يُحَسِّنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ فِي الْإِبْتِلَاءَاتِ، وَيَكُونُ عَلَى يَقِينٍ بِجَلَاءِ الْهَمُومِ وَرَفْعِ الْبَلَاءِ، اعْتِقَادَ مُحَقِّ مَوْقِنٍ لَا اعْتِقَادَ تَوْهَمٍ وَظَنٍّ، وَبِهَذَا يَخْفَفُ مِنْ وَقَعِ الْبَلَاءِ وَأَثَرِهِ عَلَى نَفْسِهِ

خامساً: حَسِنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ:

وهو توقع الجميل من الرب الجليل، ففي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)^(٣)، فكيف يخسر من كان الله نصيره ومولاه في بلواه، يذكره ويتقرب منه ويأتيه بالخير والرحمة؟

والمطلوب من المسلم في الابتلاءات أن يحسن ظنَّه بربه، وأن يكون على يقين بجلَاءِ الهموم ورفع البلاء، اعتقاد محقٍّ موقنٍ لا اعتقاد توهَمٍ وظنٍّ، وبهذا يخفف من وقع البلاء وأثره على نفسه، لذلك قصَّ علينا القرآن الكريم قول نبي الله يعقوب عليه السلام، عندما وقع عليه مصاب فقد ولدين من ولده ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

ويتأكد حسنُ الظنِّ بالله عند الشدائد والكرب، فإنَّ الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في تبوك، لم يكشف عنهم ما بهم من كرب وضيق؛ إلا عندما أحسنوا الظنَّ بربِّهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا

البلاء سُنَّةٌ كُونِيَّةٌ تَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وَهَذَا الْبَلَاءُ قَدْ يَنْشَابُهُ فِي ظَاهِرِهِ، لَكِنَّهُ يَخْتَلِفُ فِي سَبَابِهِ وَنَتَائِجِهِ، فَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا خَيْرًا عَلَى الْمُؤْمِنِ، أَمَّا الْكَافِرُونَ الْمَعْرُضُونَ، إِنْ أَصَابَتْهُمْ السَّرَاءُ بَطَرُوا، وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ الضَّرَاءُ أَشْرُوا، فَخَابُوا وَخَسِرُوا

ثالثاً: ثبات المسلم على الحق في كلِّ الظروف:

أنت أيها المؤمن عبدُ الله، ماضٍ فيك قضاؤه، عدلٌ فيك حكمه، لست من الذين يعودون إلى الله في البلوى، ثم يبعون وينكصون في السراء ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُمْ بِبِعُورٍ فِي الْأَرْضِ بَعِيرٍ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣] وجمال هذه الاستقامة إنها تورث مرضاة الرب الجليل، في كل حال وتجعلك متأقلاً راضياً في المنشط والمكروه.

والمؤمن في عسره وبلواه، يتذكر النعم والعافية، وتبدل العسر إلى اليسر، ويتيقن أن الفرج قريب ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] وتلك بشرى المؤمن وأمله الذي يثبتته، وهو ما يذهب عنه الفزع والخوف، ويجعله يفرح بفضل الله ورحمته: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

رابعاً: الدعاء والذكر:

ومثله الإكثار من العبادة بشتى أنواعها، والتضرع إلى الله لرفع البلاء، فالبلاء يجلب تعلق العبد بربه ولين قلبه على الخلق، فلا يقسو عند البأس إلا قلوب الضالين قال تعالى: ﴿قُلُوبًا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وجمال الإقامة على ذكر الله ودعائه: أن العبد يعلم أن دعاءه مستجاب لا ريب، فعن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَجِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تَعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ

(١) أخرجه أحمد (١١١٣٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

سابعًا: جمالية مقام الرضا بأمر الله وقدره:

الرضا هو انشراح القلب بقدر الله وقضائه، وسكونه تحت مجاري الأحكام، والفرق بين الرضا والصبر: أن الصبر هو حبس النفس عن التسخط، وأمّا الرضا هو انشراح الصدر بالقضاء. وقد وصف الله عباده بصفة الرضا، فقال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] فقابل الرضا بالرضا، وهو غاية الجزاء ونهاية العطاء، كما رفع الله مكانة الرضا إلى أعلى درجات الجنة، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] وقال النبي ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا)^(٥).

والرضا يكون عند العطاء والمنع، فالرب حكيم جليل، حينما يحرمننا فلحكمة، وعندما يعطينا فلحكمة، ومن أجمل الأذكار التي علمنا إياها النبي ﷺ: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غَفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ)^(٦).

ومن جمال الإسلام وواقعته، أنه لا يترك الإنسان حتى ينفجر بحبس ما في نفسه، فيسمح له أن يحدث ببلواه، ويظهرها للناس، لكن يتحدث بكلام الراضي لا الساخط «فأما إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر، قال الله تعالى في قصة أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]، مع ما أخبر عنه أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]»^(٧).

ومقتضى الرضا والإيمان بالقضاء والقدر، أن يطبق حديث النبي ﷺ: (إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَحْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ)^(٨).

صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ومن البلاءات التي وجه الإسلام إلى حسن الظن في التعامل معها، بلاء ضيق العيش؛ قال رسول الله ﷺ: (من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو أجل)^(١). وإنزالها بالله: أن توقن وتظن أن الله تعالى يفرج عنك ويزيلها.

سادسًا: الصبر عند الصدمة الأولى:

ما سبق سابقًا يصب في خانة الصبر، لكن التوجيه هنا على الصبر عند أول الصدمة، لأن من صبر فيها ثبت، قال النبي ﷺ: (إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ)^(٢). فالصبر في أول الابتلاء؛ يستدعي استمرار هذا الصبر وتحصيل عظيم الأجر.

وأول ما يحصّله الصابر في بلواه هو البشرى، وأي شيء يهون على المبتلى كالبشرى ﷺ وَبَشَرِ الصَّابِرِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وبمعرفة ثواب الصبر العظيم يهون عليك كل بلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها)^(٣).

وكان شريح يقول: «إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمد إذ لم يكن أعظم منها، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني»^(٤) فالحمد لله الذي هدى عباده إلى هذا الخلق الجميل.

(١) أخرجه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦) واللفظ له، وأحمد (٣٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٥٤)، ومسلم (٩٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٠٥/٤).

(٥) أخرجه مسلم (٣٤).

(٦) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٧) تفسير القرطبي (١٧٤/٢).

(٨) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) وهو وصية الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه لولده، ثم قال له: يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات على غير هذا فليس مني).

من جماليات التوجيهات الإسلامية عند الابتلاءات

١. الابتلاء سنة تشمل جميع البشر
٢. الأنبياء هم القدوات وهم أشد الناس بلاء
٣. المسلم ثابت على الحق في كل الظروف
٤. الدعاء والذكر في كل وقت
٥. حسن الظن بالله
٦. الصبر عند الصدمة الأولى
٧. جمالية مقام الرضا بأمر الله وقدره
٨. جماليات معرفة الحكمة من البلاء
٩. ابتغاء ما عند الله من الأجر
١٠. التعاضد ومواساة الغير
١١. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٢. المسارعة في التوبة وتزكية النفس

ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط^(٣).

« وقد يكون الابتلاء تمكيناً وتثبيتاً قال رسول الله ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ حَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَأَ بِالْبَلَاءِ، وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ صَمَاءً مَعْتَدَلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ)^(٤).

« وقد يكون البلاء عقوبة على المعاصي والذنوب، لما جاءت به النصوص الشرعية، ودل عليه النظر في أحوال الأمم والعباد في القديم والحديث.

وهكذا يكون حال المؤمن، ما بين الابتلاءات والدعوات والرحمات حتى يرد الجنة طاهراً من ذنوبه، أما الكافر فيهوي في جهنم بأوزاره وأثامه.

تاسعاً: ابتغاء ما عند الله من الأجر:

وهذا مما يعين المؤمن على تحمل بلاء منقطع مؤقت؛ رغبة في جنة دائمة باقية، تنال بالصبر

الفرق بين الرضا والصبر: أَنَّ الصبر حبس النفس عن التَّسَخُّطِ، وَأَمَّا الرضا فهو انشراح الصدر بالقضاء. وقد وصف الله عباده بصفة الرضا، وقابلهم بالرضا، وهو غاية الجزاء ونهاية العطاء

ثامناً: جماليات معرفة الحكمة من البلاء:

لله تعالى في ابتلاء عباده حكم عديدة، علينا أن نتذوق جماليات هذه الهدايات.

« فابتلاء المؤمن قد يكون كفارة له عن ذنب أو معصية، ورفعة في الدرجات. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة)^(١).

« وقد يكون البلاء دليلاً على حب الله للعبد، قال رسول الله ﷺ: (مَنْ بُرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصَبُّ مِنْهُ)^(٢)، وقال رضي الله عنه: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٤).

وقوع البلاء، ولا الدروس المطولة التي تلقى على المشردين والمشتتين، وقد يكون أبلغ منها مسحة على رأس يتيم، وضمة لمكولم، وقبلة على جبين محروم.

وقد مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر، فقال: (اتَّقِي اللَّهَ وَأَصْبِرِي)، فقالت: إليك عني، فَإِنَّكَ لَمْ تَصِبْ بِمَصِيبَتِي، ولم تعرفه، فقيل لها: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لِمَ أَعْرَفَكَ، فقال: (إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى) (٣). والحديث يدلُّ على أَنَّ المصيبة بلغت من المرأة مبلغاً عظيماً، فكان من حسن خلق النبي ﷺ ودعوته إلى الحق وإلى الخير، أنه لما رأى هذه المرأة تبكي أمرها بتقوى الله والصبر، فلما سمع جوابها، وعلم حالها، انصرف عنها حتى رجعت هي إليه، لأنه عرف أنه أصابها من الحزن ما لا تستطيع أن تملك نفسها؛ فانسحب إشفاقاً عليها، وخوفاً من أن تقول ما لا يرضي الله عز وجل، ولم ينتقم لنفسه، ولا بين لها من هو بأبي هو وأمي.

ومن صور التعاون وتقديم المواساة الكثيرة التي تكون عند نزول البلاء:

مواساة من ابتلي بفقد قريب أو عزيز بالدعاء والترحم، وتلبية احتياجاتهم وقت انشغالهم بفقيدهم، فَلَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرٍ ﷺ قَالَ ﷺ: (اصْنَعُوا لَالَ جَعْفَرَ طَعَامًا فَقَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ يَشْغَلُهُمْ) (٤).

مواساة المريض بالدعاء، والرقية، ومحاولة الخدمة وتوفير الاحتياجات قدر المستطاع.

المواساة عند الفقر والقلة بالإغاثة وتقديم الإعانة بأنواعها المادية، والعينية، والنفسية، سواء من النفس أو الآخرين. عن أبي موسى ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِتَاءٍ وَاحِدٍ بِالسُّوْيَةِ، فَهَمَّ مَنِي وَأَنَا مِنْهُمْ) (٥). وهذا فضل المواساة والسماحة والإيثار، وأنها كانت خلق نبينا ﷺ، وخلق صدر هذه الأمة، وأشرف الناس.

والتقوى، قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَجِبْنَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالإنسان متى علم أنه مجزي على صبره، مُثَاب عليه؛ عمل بما يرضي الله عز وجل لتحصيل الأجر، فيستمر على الطريق، يحدوه الأمل على الاستقامة والبعد عما يغضب الله عز وجل.

هذا ما يكون للصابرين من أجر في الآخرة، وحتى في الدنيا؛ فقد رفع الله مكانة كثير من المبتلين، حتى جعل الله لهم مكانة الشهداء؛ نظير قساوة ما مر بهم من ابتلاء، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: (الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله) (١). قال ابن حجر: «وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة.. وذكر منهم: اللدغ، والشريق، والذي يفتسه السبع، والخار عن دابته، والمائد في البحر والذي يصيبه القيء، ومن تردى من رؤوس الجبال» (٢)، قال بعض العلماء: وإنما كانت هذه الموتات شهادة يتفضل الله تعالى بسبب شدتها وكثرة أُلها.

لكلِّ مقام مقال، ولكل وقت عبادته التي تُقدِّم على غيرها، وقد لا يُناسب الوعظ المنمَّق عند وقوع البلاء، ولا الدروس المطولة التي تلقى على المشردين والمشتتين، وقد يكون أبلغ منها مسحة على رأس يتيم، وضمة لمكولم، وقبلة على جبين محروم

عاشراً: التعاضد ومواساة الغير:

ولذلك توجيهات كثيرة كفيلة بتحقيق المواساة والتكاتف، لعل من أهمها: ترك فسحة للناس وهامش ليخرجوا زفرات قلوبهم فيفضفصوا ويرتاحوا، ويلملوا جراحاتهم، والتخفيف عنهم في الوعظ والنصح، إشفاقاً عليهم، وتحسيناً للظن بهم؛ فمن قلة الحكمة حصر الناس والضغط عليهم، ولسعهم بسياط كلام طيب لا يجدون طاقةً لسماعه، فللكلِّ مقام مقال، ولكل وقت عبادته التي تقدم على غيرها، وقد لا يناسب الوعظ المنمَّق عند

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٤٤-٤٣/٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٣) وتتمته: فقالت: لم أعرفك. فقال: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى).

(٤) أخرجه أبو داود (٣١٣٢) والترمذي (٩٩٨) وأحمد (١٧٥١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).



في أوقات الرخاء وقبل وقوع المصائب، فإذا وقعت المصائب يكون هذا الأمر في تذكير الناس بالصبر على الأقدار المؤلمة، ونهيه عن الجزع والتسخط، وبيان حِكمِ الله في ما يجريه من تصاريح الأمور.

الثاني عشر: المسارعة في التوبة وتزكية النفس:

الابتلاء يُذَكِّرُ المبتلى بالرجوع إلى الله تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. فهو يهذب النفوس ويعيد لها التوازن بين اليأس والفرح ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٣٥] لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وفي الختام:

إنَّ من أجلِّ واجبات طلبه العلم والدعاة عند وقوع البلايا، أن يبادروا بالمسح على رؤوس المصابين، وأن يشدوا عزم ضعيفهم، ويطعموا جائعهم، ويؤووا شريدهم، ما استطاعوا، وأن يبشروا وينشروا الفأل والأمل ما استطاعوا، وأن يبينوا لهم الحقيقة الشرعية والكونية لما يجري لهم، وأن يصبروهم ويدلوهم على ما ينفعهم من تقوى الله وطاعته؛ فهذا مما يعين على تثبيت الناس على دينها، وسرعة تعافيتها مما هي فيه.

مواساة المهموم: فالنبي ﷺ كان يتفقّد أصحابه كما روي عن سؤاله لأبي أمامة وقد وجده جالساً مهموماً في المسجد فعلمه: (قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذُ بك من الهم والحزن، وأعوذُ بك من العجز والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأعوذُ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)^(١).



صلاح الفرد في نفسه لا يمنع من نزول البلاء بالجماعة؛ وهذا يحتم على الفرد أن يسعى لصلاح مجتمعه، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لدفع ما نخافه من الابتلاءات التي تصيب الجميع

الحادي عشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لأنَّ صلاح الفرد في نفسه لا يمنع من نزول البلاء بالجماعة؛ وهذا يحتم على الفرد أن يسعى لصلاح مجتمعه، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، لذلك من الواجب علينا إصلاح المجتمع؛ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لدفع ما نخافه من الابتلاءات التي تصيب الجميع، واحتساب الأجر على ذلك عند الله، فالقيام بهذا الواجب يرجى منه دفع البلاء عن العباد، واجتناب أسباب الهلاك، ونشر الطمأنينة والسلام، وهذا كله

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٥).



دعوة

الزلازل وفقه السنن الإلهية

د. عطية عدلان^(*)

وقوع الكوارث يعطي فرصة للإنسان ليراجع قناعاته وتصوراتها، فيتأكد من صحتها أو يصححها إن كان فيها ما يستدعي ذلك، ومن جملة ما يستوقف النظر: السؤال عن الكوارث وهل هي سنة جارية أم خوارق استثنائية؟ وما الحكمة منها؟ وهل حكم المسلمين وغيرهم فيها سواء؟ تلقي هذه المقالة الضوء على هذه القضايا والتساؤلات

مدخل:

إلا أن تخرج دفعة واحدة، فانشطرت وضاق بها المخرج، ولم يفلت منها إلا القليل؛ وإذ بي أتمتم ببعض كلمات، شعرت وقتها أنها كالعجالة التي تعطي للجوعان ريثما يستوي الطعام، ثم انخرطنا فيما انخرط الناس فيه من الصلاة والقيام.

من الناحية الجدلية المحضة قد يستقيم في الظاهر هذا السؤال: إذا كنا ندعو على الظالمين ليل نهار، ونستمطر عليهم غضب الواحد القهار، وإذا كان الله قد وعد المؤمنين باستجابة الدعاء وبالنصر على الأعداء، وتوعد المجرمين بالعذاب والنكال وصروف البلاء؛ فلماذا يبقى هذا الوضع المقلوب على ما هو عليه دون حلحلة؟ بل لماذا تتوالى علينا المحن كأنها عَقَدَتْ حلفاً فيما بينها أن تتناوب علينا تارة وأن تجتمع فوق رؤوسنا تارة أخرى؟! أيكون

منذ أيام قلائل -وبينما كنا في لقاء إيماني- دنا مني شابٌ مُهَدَّبٌ لطيفُ الحسِّ رقيقُ المشاعر، وهمس لي بسؤال له تعلق بما كنا نعالجه، فأخبرني في البداية -وإنني لأظنُّه صادقاً- أنه ما دعا لنفسه بدعوة إلا واستجيبت، ثم استطرد: لكنتي دعوتُ الله كثيراً على فلان من المجرمين الطغاة -وما أكثرهم في هذا الزمان- لكن لم يُسْتَجَبْ لي إلى الآن!

ثم ساررتني بما كان يساوره من هواجس ووساوس: وإنني أخشى أن يكون ذلك فتنة لي!

عندئذ تواردت الخواطر على ذهني في آن كأنها برادة الحديد أُلْقِيَتْ في خضمها بقطب (المغناطيس)، وازدحمت على ثغر البيان كلماتٌ وعبارات، أُبِتُّ

(*) أكاديمي، رئيس مركز محكمات في إسطنبول.

يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٣]، أما ما يجري في هذا الكون أو على هذه الأرض -أو حتى في ذوات الخلق- من أمور تقتضيها القوانين وتحتمها النواميس التي أودعها الله في الكون فهذا أمر جدٌ مختلف، كأن يقع زلزال أو يهب إعصار أو ينتشر وباء من الأوبئة؛ فهذه كلها كوارث تجري بقدر الله تعالى وفق سنن إلهية متنوعة.

هذه الكوارث الكونية تجري بقدر الله تعالى؛ فتحقق أمرين، الأول: تحقق مراد الله في الكون على وفق القوانين التي أودعها فيه، كأن يقع الزلزال بأسباب جيولوجية، الثاني: تحقق مراد الله تعالى بابتلاء قوم واصطفاء آخرين، فهي لأهل الكفر والفسوق والعصيان عقوبة وابتلاء، وهي لأهل الإيمان والصلاح والتقوى اصطفاء واجتباء، فإن أصابت من خلق الله من أصابت؛ فليسوا سواء، فأما الذين آمنوا واتقوا فهي لهم اصطفاء واجتباء، وأما العتاة الظالمون فهي عقوبة عاجلة تأتي قبل العقوبة الأخروية الآجلة، وربما أشرت إلى شيء من ذلك منذ عام أو يزيد، في تعقيبي على ردود أفعال الناس لدى إعصار أمريكا^(١).

- كما ينبغي التفريق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي:

فالأمر أو الحكم أو القضاء الكوني له طبيعة وأثر على نحو معين، والأمر أو الحكم أو القضاء الشرعي له طبيعة وأثر على نحو مختلف، فيجب -أولاً- التسليم للحكمين، للأول بالرضا وللثاني بالانقياد.

ويجب -ثانياً- التعامل مع كل من الأثرين تعاملًا مكافئًا، فحق الرضا تعطيل السؤال، وحق الانقياد تفعيل السؤال، أي إنه يجب وقف وتعطيل السؤال عن الحكم الكوني القدري؛ فلا يسأل العبد لماذا ابتلانا الله بكذا؟ ولماذا حكم علينا بكذا؟ ليتحقق له الرضا، الذي هو التسليم للحكم الكوني.

وفي المقابل يجب إعمال وتفعيل السؤال عن الأمر الشرعي، فيسأل العبد: ما الذي فرضه الله علي وما الذي أباحه وما الذي حرمه؛ وهذا مقتضى الانقياد الذي يتحقق به الاستسلام للحكم الشرعي؛ لذلك قالوا: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام».

هؤلاء على حق ونحن على باطل؟! أم إنَّ عناية الرب تخلت عنا وتركتنا نهبة للمنون؟! حتى الأرض التي وعد الله أن يورثها لعباده الصالحين، تتركمم وتزلزل من تحتنا نحن!

تلك هي الصورة التي تخدع بعض الطيبين من أمثال هذا الشاب، وفي جوها يبرز الشكك العاجزون عن صناعة الحياة؛ ليطرحوا بذور اليأس والقنوط والإحباط، وليصرفوا الجيل عن الدين الحق، وما هي إلا صورة جدلية عقيمة، ليست في ميزان الشرع والعقل سوى تجديف مضاد لتيار المحكمات.

ولا ينقص هذه التساؤلات إلا أسئلة الخير والشر والقضاء والقدر لتكتمل الباقة التي يستمد منها الإلحاد المعاصر كل عناصر التشكيك، وذلك بعد أن أفلست النظريات العلمية وعجزت عن تقديم جديد مفيد في هذا الاتجاه، ولعل صنائيد الإلحاد الجديد المعاصر من أمثال «ريتشارد دوكنز» يعتمدون على هذا المصدر أكثر من اعتمادهم على «الخرافات العلمية» السالفة كنظرية «النشوء والارتقاء» وتفسيرية «الخطب العشواء»، وغير ذلك، إضافة إلى خطاب إنشائي ملفق من كلمات مأثورة عن رموز مشهورة، لو أحببت أن تحملها على وجهين أو ثلاثة لم تجد صعوبة في الحمل، ولا مشقة في التأويل، وهذا لعمرى ممكن الخطر الذي يجب مواجهته بالعلم الصحيح والفهم السديد.

الكوارث تُحَقِّقُ مراد الله تعالى بابتلاء قوم واصطفاء آخرين، فهي لأهل الكفر والفسوق والعصيان عقوبة وابتلاء، وهي لأهل الإيمان والصلاح والتقوى اصطفاء واجتباء، وهي للعتاة الظالمين عقوبة عاجلة تأتي قبل العقوبة الأخروية الآجلة

منطلقات لفهم سنن الله في الكون:

- ينبغي أن نُفَرِّقَ ابتداءً بين الخوارق والكوارث:

فأما الخوارق فهي آيات يخرق الله بها النواميس الكونية لتكون معجزةً لنبيه وكرامةً لوليه، أو لتكون أخذًا لأعدائه ونصرًا لأوليائه، فأخذ الله لعاد بالصرصر العاتية ولثمود بالصيحة ولفرعون بالغرق آيات من قبيل الخوارق، التي يخرق الله بها الناموس الذي وضعه لهذا الكون، والله يفعل ما يشاء، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا

(١) مقالة (وهذا الإعصار...) للكاتب، موقع عربي ٢١، نشر بتاريخ ١٥ أيلول سبتمبر ٢٠١٧م.

- وينبغي أيضاً التفريق بين العدل الإلهي والعدل الشرعي:

فأما العدل الشرعي فالحياة الدنيا هي الظرف الزماني الذي يستوعبه، وإرادة الإنسان هي مناط تنفيذه وإقامته، فيجب على الإنسان أن يسعى إلى إقامته في الدنيا على قواعد الشريعة التي خاطبه الله بها، وجعلها محلّ ابتلائه وموضع امتحانه واختباره في هذه الدار، أما العدل الإلهي فلا تتسع الحياة الدنيا لتكون الظرف المستوعب له، ولا ينهض العباد بإدراك أبعاده فضلاً عن السعي لإقامته، وإنما تتصل الدنيا بالآخرة ليكونا معاً ظرفاً واحداً لهذا العدل الإلهي، وتتسع حكمة الله البالغة، لتتعدد وتنوع طرائق تحقيق هذا العدل؛ بما لا يحيط به العباد، ولا يدركون منه إلا ما أخبرهم الله به في كتابه أو فيما وضعه من سنن ربانية ماضية ونواميس إلهية جارية، فعلى سبيل المثال نرى كثيراً من الظالمين المجرمين منعمين لا ينتصف منهم في الدنيا للمظلومين، لكنّ إيماننا باليوم الآخر يجعلنا ندرك أن عدل الله تعالى لا تتسع الدنيا لتكون ظرفاً زمانياً لتحقيقه.

ينبغي على المؤمن ألا يسأل: لماذا ابتلانا الله بكذا؟ ولماذا حكم علينا بكذا؟ ليتحقق له الرضا، الذي هو التسليم للحكم الكوني. وفي المقابل عليه إعمال وتفصيل السؤال عن الأمر الشرعي، فيسأل العبد: ما الذي فرضه الله عليّ وما الذي أباحه وما الذي حرمه؛ وهذا مقتضى الانقياد

الفرق بين المسلمين والكفار في البلايا والمصائب:

إننا -وإن كنا قد زلزلنا بعد أن مسّتنا البأساء والضراء- مسلمون مؤمنون موحدون، وإن أعداءنا -ولو فرضنا أنهم سلّموا في حياتهم وأنّ سلامتهم ستدوم- مجرمون وإلى جهنم ذاهبون، وعند الله تعالى تجتمع الخصوم، فلسنا وإياهم سواء، فقتلنا في المعارك في الجنة وقتلهم في النار، ومن هلكوا منّا تحت أنقاض الزلازل أو بتدمير الرياح والأعاصير لهم مرتبة من مراتب الشهادة، بخلاف من هلكوا منهم فإنهم -باستثناء من انطبقت عليه أحكام الفترة- هالكون، وهم في عذاب جهنم خالدون.

أما استئصال وأخذ الله للمجرمين فمسألة أخرى، فقد ارتاب كثير من المسلمين وتساءلوا: أين

ما وعد الله به من أخذ المجرمين؟ وقد أسأوا إذ استعجلوا وغفلوا عن سنن الله، إنّ سنة الله تعالى في أخذ الظالمين ماضية لا تتخلف؛ ولكنّ تحققها يكون بأيدي المؤمنين، وهذه الآية نصّ في القضية: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْيَارُ لَمَّا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣]، وما عداها من الآيات التي تقضي بأنّ سنة الله في أخذ الظالمين ماضية لا تتبدل ولا تتحول محمولة عليها؛ بما يفيد أنّ أخذ الأمم الظالمة المحاربة للإسلام لن يكون بخوارق من جنس ما أخذ الله به عاداً وثمود وفرعون؛ لأنّ وظيفة الأمة الإسلامية أرقى من الأمم المسلمة السابقة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لذلك وجدنا سورة القمر بعدما قصّت علينا بإيجاز مصارع الأمم الغابرة ثم انتهت إلى قريش تشير إلى الآلية الجديدة التي سوف تتحقق بها سنة الله الماضية: ﴿كَفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿١٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ٤٣-٤٥]، ثمّ تأتي الأنفال بعدما تحققت النبوءة القرآنية في بدر؛ لتعقب بما يؤكد الحقيقة: ﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٥٢]، فما وقع لهؤلاء في بدر على ذات السنة التي وقع بها العذاب لأولئك، غير أنّ الأسلوب اختلف؛ ليكون الأخذ بأيدي المؤمنين.

أما النصر فله أسباب، لا بد من استكمالها، فليس بالحمية والحماسة وحدهما يتحقق النصر، ولا بمجرد المواجهة -لو كانت مسلحة- حتى ينضم إليها عوامل أخرى هي من صميم القوة التي أمر الله بإعدادها، منها الوحدة، واستقامة الفهم، وحسن التخطيط، ووضوح الرؤية، والتحرك وفق مشروع واضح المعالم، وغير ذلك مما لا بد منه حسب سنة الله تعالى.

دلّت الآيات والنصوص على أنّ سنة الله في أخذ الظالمين ماضية لا تتبدل ولا تتحوّل؛ بما يفيد أنّ أخذ الأمم الظالمة المحاربة للإسلام لن يكون بخوارق من جنس ما أخذ الله به عاداً وثمود وفرعون؛ لأنّ وظيفة الأمة الإسلامية أرقى من الأمم السابقة



هل كانت استجابة الأمم المتحدة في سوريا بحجم الكارثة؟

م. كندة حواصل^(*)

على المنظمات الأممية مسؤولية كبرى في تقديم الإغاثة والمساعدة للمنكوبين من الآفات والكوارث والحروب والزلازل والأعاصير، بحكم المواثيق التي تعلنها والمبادئ التي تلتزمها والصلاحيات الممنوحة لها، لكن تطبيق ذلك ليس بالقدر المتوقع، وبالمقارنة يظهر ذلك خصوصاً في الأيام الأولى من الكارثة، وهذه المقالة تلقي الضوء على أداء الأمم المتحدة في المناطق المحررة من سوريا بعد الزلزال

واعتبرت المأساة فرصة لإعادة التطبيع مع نظام الأسد المنبوذ منذ سنوات، في مشهد يدعو للتساؤل عن مدى فعالية القرارات السياسية والمؤسسات الأممية التي صممت للاستجابة للكوارث والأزمات، ومدى التزام هذه الجهات بقيم النزاهة والمساواة والعدالة والدفاع عن المظلومين.

”
الوضع الإنساني قبل كارثة الزلزال لم يكن على ما يرام في جميع مناطق سوريا، لا سيما مناطق سيطرة نظام الأسد، وبدت بشكل واضح في عجز الدولة عن تأمين أبسط احتياجات مواطنيها بالإضافة إلى الانهيار المتسارع في سعر صرف الليرة

احتلت أخبار الزلزال الذي ضرب الجنوب التركي والشمال السوري اهتمام العالم لأسابيع، كونه الزلزال الأعنف الذي ضرب المنطقة منذ سنوات والذي خلف وراءه مساحات واسعة من الدمار وعشرات الآلاف من القتلى والمصابين في حصيلة لم تتضح أرقامها بعد، ولا زالت تبعاته من هزات ارتدادية وسياسية وإنسانية ومجتمعية تلاحظ بشكل واضح وتنبئ بتغيرات مستقبلية من الصعب التنبؤ بها.

ورغم حجم الكارثة الإنسانية الكبير، ومساحة الدمار الواسع، أظهر الزلزال جوانب من ضعف الاستجابات الإنسانية وتسييسها، واستخدمت الكارثة كأداة لتحصيل مكاسب سياسية على حساب المدنيين وحياتهم وأمانهم واحتياجاتهم،

(*) باحثة وناشطة، مديرة الوحدة المجتمعية في مركز الحوار السوري.

يعاني في شمالي غرب سوريا من التقرُّم نتيجة سوء التغذية، وهو ما يُهدد نموَّه البدني والعقلي ويتسبَّب بمخاطر الإعاقات والوفاة، إلى جانب ارتفاع معدلات أعراض ما بعد الصدمة وارتفاع معدلات الإعاقة لتصل إلى نسبة ٢٤٪ من إجمالي عدد السكان^(٤).

بعد الزلزال بقيت المناطق المحررة وحيدة، تناشد العالم من أجل التحرك والمساعدة دون أن تلقى نداءاتها أذاناً صاغية أو تفاعلات حقيقية، وهو ما زاد من حجم الخسائر البشرية، لا سيما مع قلة المعدات المطلوبة للإنقاذ، وعدم قدرة القطاع الطبي المنهك على مواكبة حجم الخسائر البشرية الكبير

الزلزال السوري التركي، ضربة في عمق المنكوبين:

استيقظ الجنوب التركي والشمال السوري في ٦ من شباط عام ٢٠٢٣ على وقع زلزالين عنيفين، تسببا بأضرار مادية وبشرية يصعب حصرها وتقييمها حتى الآن، فقد أثر الزلزال على ما لا يقل عن ٩,١ مليون شخص بشكل مباشر في تركيا و٨,٨ مليون شخص إضافي في سوريا^(٥)، وكان السوريون عاملاً مشتركاً بين المنكوبين الموجودين في الجنوب التركي أو في الشمال السوري سواء في المناطق المحررة أم في مناطق سيطرة النظام.

وقد سجلت ما يزيد عن ١١ ألف هزة ارتدادية في الأسبوعين الذين تليا الزلزال تجاوزت شدة بعضها ٥ درجات على مقياس ريختر، وفاقت العوامل الجوية وظروف الشتاء القارس من حدة الأزمة الإنسانية لا سيما مع الاحتياج الكبير للمأوى والرعاية الطبية والبحث عن ناجين، وقدر حجم الاحتياج المطلوب لتنفيذ استجابة عاجلة في الأشهر الثلاثة القادمة بـ ٤٠٠ مليون دولار.

على الفور أعلنت الحكومة التركية خطة طوارئ استجابة للكارثة الإنسانية، وقدمت العديد من الدول المساعدات المادية واللوجستية التي تحركت لإغاثة

قبل الكارثة، احتياج كبير واستجابة محدودة:

لم يكن الوضع الإنساني قبل كارثة الزلزال في سوريا مبشراً، فقد أدت الأزمة الاقتصادية وارتدادات أزمة كورونا وتبعات الحرب الروسية الأوكرانية إلى أزمة في الوقود والغذاء، انعكست كلها مجتمعة سلباً على حالة المدنيين في جميع مناطق سوريا لا سيما مناطق سيطرة نظام الأسد، وبدت بشكل واضح في عجز الدولة عن تأمين أبسط احتياجات مواطنيها بالإضافة إلى الانهيار المتسارع في سعر صرف الليرة.

وقد قدرت آخر التقارير الأممية أن ١٥,٣ مليون شخص من أصل ما يقارب ٢٢,١ مليون شخص داخل سوريا - أي ٦٩٪ من إجمالي عدد السكان - سيحتاجون للمساعدة الإنسانية عام ٢٠٢٣، بينهم ١٢,١ مليون نسمة يعانون من انعدام الأمن الغذائي، خاصة وأن ٨٥٪ من المجتمعات المحلية على كامل الجغرافيا السورية فشلت العام الماضي في تأمين كامل احتياجاتها الأساسية، إلى جانب أن المساعدات الواردة لم تغط سوى ٤٠٪ من الاحتياجات التقديرية^(١).

ويشكل الأطفال ما يقارب ٤٦٪ من إجمالي الفئات المحتاجة للدعم، تليها النساء بنسبة ٢٩٪، ثم ذوو الاحتياجات الخاصة بنسبة ١٧٪، مع العلم أن الدعم المقدم لم يغط سوى ٣٦٪ من الأسر المحتاجة، ولا يزال ٢ مليون طفل خارج العملية التعليمية^(٢).

وعلى المستوى الصحي، تراجعت قدرة القطاع الصحي على تأمين الخدمات المطلوبة، حيث لم يبق سوى ٥٩٪ من المشافي و٥٧٪ من المراكز الصحية قيد العمل، يتوقع منها تقديم الخدمات الصحية المطلوبة الهائلة من جهة، ومواجهة الانتشار المتصاعد لوباء الكوليرا الذي ظهر مؤخراً، فقد سجل في العام الماضي ما يزيد عن ٣٦ ألف حالة إصابة، أدت إلى ٦٨ حالة وفاة^(٣).

وإلى جانب الأوبئة، ارتفعت معدلات سوء التغذية بين الرضع والأطفال والنساء الحوامل والمرضعات، حيث أشارت التقارير الأممية إلى أن طفلاً من بين كل أربعة أطفال دون سن الخامسة

(١) تقرير منظمة OCHA: نظرة على الاحتياجات الإنسانية في سوريا لعام ٢٠٢٣، ديسمبر ٢٠٢٢، موقع reliefweb.int.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) موجز أعمال مكتب الشؤون الإنسانية، منظمة OCHA، بتاريخ ٢٠٢٣/٢/١٦، موقع connectingbusiness.org.

القائم على تخوم محافظة هاتاي المتضررة، في حين بدأ دخول مساعدات إضافية من معبر باب السلام في ٢/١٤ أي في اليوم التاسع على الزلزال بوتيرة قليلة حيث لم تشكّل عدد الشاحنات التي عبرت من هذا المعبر سوى ١٩٪ من إجمالي عدد الشاحنات التي وصلت للشمال السوري، في حين بدأت المساعدات بالدخول من معبر الراعي في ٢/٢٠ وشكلت ٤٪ من إجمالي عدد الشاحنات كاملة^(٢).

وتعود هذه المساعدات لـ ٦ وكالات دولية، فقد قدم برنامج الغذاء العالمي ٥١٪ من إجمالي عدد الشاحنات، تليه منظمة الهجرة الدولية بـ ٣١٪، ثم جاءت الشاحنات المقدمة من طرف المفوضية السامية لشؤون اللاجئين في المرتبة الثالثة بنسبة ١٢٪، ثم منظمة الصحة العالمية بنسبة ٣٪، وأخيراً شاركت اليونيسيف وصندوق الأمم المتحدة للسكان بأقل من ٣٪ من إجمالي عدد الشاحنات^(٣).

من الملاحظ أن إجمالي المساعدات المقدمة في الأسابيع الثلاثة التي تلت الزلزال رغم الكارثة كان أقل بكثير من الحجم المتوقع، بل كانت الاستجابة المقدمة في حالة الكارثة أقل من نمط الاستجابة الإنسانية الاعتيادية المقدمة في حالات الاستقرار النسبي

ومن الجدير بالذكر أن إجمالي المساعدات المقدمة في الأسابيع الثلاثة رغم الكارثة أقل بكثير من الحجم المتوقع، ففي العام الماضي قدر حجم المساعدات التي دخلت منطقة الشمال السوري بـ ٨٠٠-٩٠٠ شاحنة شهرياً، أي أن نمط الاستجابة المقدمة في حالة الكارثة كان أقل من نمط الاستجابة الإنسانية الاعتيادية المقدمة في حالات الاستقرار النسبي^(٤) رغم المناشدات والتواصلات المكثفة التي قامت بها العديد من المنظمات والوعود التي تلققتها.

ومن جهة أخرى، دخلت منطقة الشمال السوري مساعدات مقدمة من عدد محدود من الدول العربية كقطر والسعودية وكردستان العراق، في حين جهزت عشائر دير الزور ٧٥ شاحنة حملت مساعدات إنسانية،

المنكوبين في تركيا، كما تحركت قوافل المساعدات الجوية والبرية إلى داخل سوريا بعد ساعات على الزلزال وحملت معها المواد العينية والفرق اللوجستية المدربة للإنقاذ، فيما بقيت المناطق المحررة وحيدة، تناشد العالم من أجل التحرك والمساعدة دون أن تلقى نداءاتها أذاناً صاغية أو تفاعلات حقيقية، وهو ما زاد من حجم الخسائر البشرية، لا سيما مع قلة عدد المعدات المطلوبة للإنقاذ، وعدم قدرة القطاع الطبي المنهك تقديم الاستجابة الطبية الكاملة نظراً لحجم الخسائر البشرية الكبير.

لم يكن حال السوريين في مناطق الجنوب التركي أفضل، خاصة وأن المناطق التي ضربها الزلزال تضم نسبة كبيرة من السوريين في تركيا تقدر بـ ٤٩٪ من إجمالي عدد اللاجئين السوريين في تركيا، ممن يعتبرون من الفئات الهشة والضعيفة، حيث قدرت أعداد الضحايا من السوريين بما يقارب ٤٨٠٠ شخص، بالإضافة إلى آلاف المصابين، فيما لا يزال هناك المئات في عداد المفقودين.

الأمم المتحدة الغائبة، استجابات مُعطلة وباهتة:

تحركت فرق الدفاع المدني وكوادر المنظمات السورية العاملة في المجال الإنساني على الفور عقب الزلزال، وبدؤوا بتصميم استجابات محلية وفقاً للإمكانيات المتاحة لمواجهة الكارثة الكبيرة منفردين، وانطلقت حملات تبرع سورية تسعى لإغاثة المنكوبين الذين اجتمعت عليه مصائب الزلزال وبرد الشتاء والنزوح والفقْد، في محاولة لاحتواء الكارثة التي لم تتفاعل معها الجهات الأممية على النحو المطلوب، بل تذرعت بوجود العديد من القيود اللوجستية وقيود الوصول إلى مناطق معينة وظروف الشتاء وتفشي الكوليرا المستمر وراء حالة التباطؤ في سياسة الاستجابة الإنسانية^(١).

ورغم حجم الكارثة تأخرت الاستجابة الإنسانية لفرق الأمم المتحدة حتى اليوم الرابع من الزلزال بمعدل ٦ شاحنات كدفعة أولى، وتشير البيانات الصادرة عن الأمم المتحدة إلى أن إجمالي عدد الشاحنات التي دخلت بين ٢/٩ وحتى ٢/٢٨ بلغ ٤٥٦ شاحنة، وقد تركز دخول الشاحنات من معبر باب الهوى الحدودي

(١) تقرير منظمة OCHA، نداء عاجل، زلزال الجمهورية العربية السورية، ٢٠٢٣/٠٢/١٤، موقع reliefweb.int.

(٢) تقرير منظمة OCHA، عمليات الاستجابة للزلازل عبر الحدود من تركيا إلى شمال غرب سوريا (حتى ٢٨ فبراير ٢٠٢٣)، موقع reliefweb.int.

(٣) المرجع السابق.

(٤) صفحة الدكتور محمد كتوب على الفيس بوك، وهو مسؤول مناصرة سابق في الجمعية الطبية السورية الأمريكية SAMS، وعلى اطلاع كبير ومتابعة للوضع الإنساني في شمال غربي سوريا، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/٢٠.



وأكثر من ٨٣٠٠ حالة إصابة في شمال غرب سورية حتى تاريخ ٢٣ شباط^(١)، أغلبهم من مناطق حارم، تليها عفرين وجبل سمعان، كما قدر عدد الأبنية المتضررة بشكل كامل بما يقارب ١٨٠٠ بناء، ٧٥٥٠ منزل متضرر بشكل جزئي وغير صالح للسكن^(٢) وقد تركزت أغلب المباني المتضررة في منطقة حارم بمحافظة إدلب ومنطقة عفرين في محافظة حلب.

”
المساعدات المرسله من قبل العشائر
والحملات الشعبية فاقت بمجموعها
حجم المساعدات الدولية والأممية التي
وصلت في الأسابيع الأولى من الكارثة، وهو
ما أظهر عجز الجهات الدولية وتواضع
حجم استجابتها أمام الاستجابات المحلية

كما قدر عدد النازحين جراء الزلزال قرابة ٥٠ ألف عائلة (٢٠٠ ألف شخص) على أقل تقدير، أغلبهم قدموا من ناحية سلقين، ورغم استنفار

فاقت بمجموعها حجم المساعدات الأممية التي وصلت حتى ذلك الوقت، وهو ما أظهر عجز الجهات الدولية وتواضع حجم استجابتها أمام الاستجابات المحلية.

وقد وجهت منظمات حقوقية سورية تهماً بالتقصير لمؤسسات الأمم المتحدة، معتبرين أنه كان بإمكانها تفعيل العديد من الآليات المتاحة لمواجهة الكوارث كتحريك فريق الأمم المتحدة لتقييم الكوارث والتنسيق UNDAC، والمجموعة الاستشارية للبحث والإنقاذ INSARAG، وتفعيل صندوق الأمم المتحدة المركزي لحالات الطوارئ والخاص باحتياجات شمال غرب سوريا، بالإضافة إلى تفعيل دور منسق الأمم المتحدة للإغاثة الطارئة ERC الذي تأخرت زيارته لمكان الحدث قرابة أسبوع، مطالبين بفتح تحقيق دولي حول الموضوع^(٣).

بالأرقام، نكبة مضاعفة في المناطق السورية المحررة:

حسب بيانات مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، تم الإبلاغ عما يقارب ٤,٥٠٠ حالة وفاة

(١) تسجيل وفاة ٦٣١٩ سوري بسبب الزلزال منهم ٢١٥٧ في المناطق خارج سيطرة النظام السوري و٣٢١ في مناطق سيطرة النظام السوري و٣٨٤١ في تركيا، موقع الشبكة السورية لحقوق الإنسان snhr.org، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/١٥.
(٢) تقرير منظمة OCHA عن وضع شمال غرب سوريا، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/٢٥، موقع reliefweb.int.
(٣) التحديثات اليومية للزلزال، وحدة تنسيق الدعم ACU، (٢٦ فبراير ٢٠٢٣)، موقع الوحدة acu-sy.org.

إلى آلاف النازحين الذين لم يستقرُّوا بعد، وقد تمّ تمديد تعليق المدارس حتى ١٨ شباط^(٤)، ثم حتى ٢٢ شباط، وبعدها استؤنفت الدراسة في معظم المدارس العامة والخاصة، ما عدا التي تضررت مبانيتها بفعل الزلزال بما لا يسمح باستخدامها حفاظًا على سلامة الطلاب والمعلمين.

يعتبر بعض الناشطين أن أرقام الخسائر البشرية الحقيقية في الشمال السوري أعلى من المعلن عنها، فيما تشير تقديرات أولية من مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية إلى أن ٧٠ عاملًا في المجال الإنساني توفوا جرّاء الزلزال داخل سوريا^(٥)، وإلى جانب ذلك تضررت العديد من المؤسسات السورية المرخصة في تركيا والعاملة في الشأن الإنساني داخل سوريا وفقدت مقراتها وتشتتت كوادرها، إلا أنها استمرت بمهامها وواجباتها رغم كونها من الجهات المنكوبة.

توفي عشرات العاملين في المجال الإنساني في الشمال السوري جرّاء الزلزال، وإلى جانب ذلك تضررت العديد من المؤسسات السورية العاملة في الشأن الإنساني داخل سوريا وفقدت مقراتها وتشتتت كوادرها، إلا أنها استمرت بمهامها وواجباتها رغم كونها من الجهات المنكوبة

توظيف المعاناة الإنسانية لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية:

ضرب الزلزال مناطق في شمال وغرب سوريا، وقد أحس به السكان حتى في محافظة دمشق وريفها، حيث كانت اللاذقية وجبلة إلى جانب مدينة حلب أبرز المحافظات المتضررة في مناطق سيطرة النظام السوري جرّاء الزلزال، إلى جانب مناطق في ريف حمص وحماة، وقد قدرت تقارير صادرة عن الأمم المتحدة عدد المتضررين في هذه المناطق بما يقارب ٤ مليون شخصًا، بينهم ٢ مليون يعتبرون

كافة المنظمات المحلية والكوادر التطوعية، لا تزال المخيمات التي أقيمت خلال الاستجابة بحاجة إلى المراحيض ومرافق الصرف الصحي والمياه النظيفة، بالإضافة إلى البطانيات والملابس الشتوية والوقود اللازم للتدفئة، وتعتبر المساعدات النقدية متعدّدة الأغراض الحاجة الأكثر إلحاحًا عند النازحين الجدد، تليها الحاجة إلى ترميم وإصلاح البنية التحتية كشبكات الكهرباء والاتصالات والإنترنت والمرافق التعليمية، بالإضافة إلى إزالة الحطام^(١).

صحيًا تشير تقييمات الأمم المتحدة إلى أن عدد المتضررين من الزلزال في المناطق السورية المحررة يقدر بـ ٣ ملايين شخص وهم يُشكّلون قرابة ٦٤٪ من إجمالي عدد السكان المقيمين في المنطقة، وقد تركّزت ٧٠٪ من جميع الإصابات المبلغ عنها في منطقة حارم بمحافظة إدلب وحدها. حيث لا تزال ٢٠٪ من إجمالي المجتمعات المحلية غير قادرة على الوصول للرعاية الصحية، لا سيما في منطقتي بادما وحارم، خاصة بعد أن تضرّر قرابة ٥٢ مرفق صحي بشكل جزئي أو كامل^(٢).

هذا وقد ارتفعت مجددًا معدلات الإصابة بالكوليرا لتصل إلى أكثر من ٤٧,٧٠٠ حالة مشتبه بها، معظمهم من الأطفال في سن الرابعة أو أقل، وأدت إلى ٢٢ حالة وفاة، في حين ارتفع حجم الاحتياجات الطبية المطلوبة، فإلى جانب الاحتياجات الطبية الطارئة بإسعاف المصابين جرّاء الزلزال، تعاني مراكز غسيل الكلى من نقص حاد في المستلزمات الطبية، بالإضافة إلى الحاجة الكبيرة للدعم النفسي، خاصة مع ارتفاع معدّلات الصدمة والانهيارات العصبية بين الأطفال والنساء وكبار السن، إلى جانب وجود أعداد كبيرة من الأطفال غير المصحوبين بذويهم نتيجة وفاتهم أو ضياعهم يقدر عددهم بـ ١٣٦٢ طفل يحتاجون إلى رعاية ومتابعة خاصة^(٣).

وعلى المستوى التعليمي، تضرّر ما لا يقل عن ٢٧٠ بناء مدرسي جرّاء الزلزال، وتوفي ما لا يقل عن ٦٢٦ تلميذًا وأصيب ١,٠٤١ آخرون بالإضافة

(١) تقرير منظمة OCHA عن الوضع: ١٧ فبراير ٢٠٢٣، موقع reports.unocha.org.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تقرير منظمة OCHA عن الوضع الإنساني شمال غرب سوريا نتيجة الزلزال - التقرير الأسبوعي، المنصة الخاصة بشمال غرب سوريا، تقرير عن الوضع: ٢١ فبراير ٢٠٢٣، موقع reliefweb.int.

(٤) المرجع السابق.

(٥) صفحة الناشط الدكتور محمد كتوب، وهو مسؤول مناصرة سابق في الجمعية الطبية السورية الأمريكية SAMS، وعضو فعال في عدد من مجموعات المناصرة العاملة في الشأن الإنساني، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/٢٠.

عن إيصال جميع المساعدات إلى سوريا، بما في ذلك تلك المناطق التي لا تخضع لسيطرتها^(٧)، وأعلن رئيس الهلال الأحمر العربي السوري عن استعداده لإرسال قوافل مساعدات إلى المناطق المحررة، لو كان يمتلك ما يكفي من المعدات والآليات الثقيلة التي حرم السوريون منها نتيجة العقوبات^(٨). رغم أن مدفعية نظام الأسد لم تتوان عن قصف المناطق المنكوبة عقب الزلزال عدّة مرات^(٩).

وصلت إلى مناطق النظام السوري خلال ١٠ أيام ما يزيد عن ١٦٥ طائرة شحن محملة بالمساعدات وأكثر من ٣٢٤ شاحنة من ٢٢ دولة، وقد شكل ما وصل إلى مناطق سيطرة النظام السوري ٦٤٪ من إجمالي المساعدات الواصلة إلى سوريا، في حين حصل الشمال السوري على ٣٦٪ من المساعدات لم تستطع حتى الآن تغطية ٨٪ من عمليات الإغاثة للمنكوبين في المنطقة التي تعتبر الأشد تضرراً^(١٠).

وقد وردت العديد من الأخبار المحلية التي تؤكد قيام نظام الأسد بسرقة وبيع المساعدات القادمة للمتضررين من قبل العديد من الناشطين المحليين والأجانب، بالإضافة إلى ابتزاز العاملين والمتطوعين وتهديدهم^(١١)، كما انتشرت العديد من التقارير الأجنبية التي تُحذّر من إمكانية تسييس المساعدات واستغلالها لأغراض سياسية، خاصة بعد ورود العديد من التقارير السابقة إلى أن نظام الأسد كان يحصل على ٥١٪ من كل دولار يدخل إلى سوريا كمساعدات دولية، وهذه المبالغ يتم استعمالها في دعم اقتصاد الحرب وتعزيز القبضة الأمنية من جديد^(١٢).

لقد ساهمت المساعدات العربية والدولية المقدمة بدعم الاقتصاد السوري المتهاك بشكل

الأكثر تضرراً، فيما بلغ عدد الوفيات ١٤١٤ شخصاً، وتجاوز عدد الجرحى ٢٣٥٧ جريحاً^(١٣).

وتحدثت التقارير الحكومية عن تشريد قرابة ٢٩٣ ألف شخص، وإنشاء ١٨٠ مركز إيواء لاستيعابهم^(١٤). وتضرر ما يقارب ٢٤٨ مدرسة، بينها ٧١ مدرسة في محافظة حلب و ٥٠ مدرسة في محافظة اللاذقية و ٢٧ مدرسة في محافظة حماة و ٩٩ مدرسة في محافظة طرطوس ومدرسة واحدة في ريف إدلب^(١٥).

وإلى جانب الفرق المحلية والفرق التابعة للهلال الأحمر السوري وبعض المنظمات الإنسانية، بدأت العديد من طواقم المنظمات الدولية على الأراضي السورية استجابة طارئة لتداعيات الزلزال في مناطق سيطرة النظام كاليونيسف وأوكسفام وعدد من المنظمات الأخرى، وقد قامت بتوزيع حفاضات وسلال نظافة عائلية ومياه نظيفة، ودعم مراكز الإيواء بالأسرة والمرافق الصحية في كل من حلب واللاذقية وحماة، بالإضافة إلى توفير وجبات مطبوخة، وتوزيع ملابس وإجراء فحوص صحية دورية للنساء والأطفال بحثاً عن حالات سوء التغذية^(١٦).

وقد استثمر نظام الأسد الكارثة الإنسانية سياسياً، فقد طالبت حكومة نظام الأسد بتفعيل آلية الحماية المدنية التابعة للاتحاد الأوروبي، بهدف إرسال المساعدات الإنسانية للمدنيين^(١٧). كما أطلق حملات إعلامية تطالب بإلغاء العقوبات على سوريا تحت ذريعة أن هذه العقوبات هي أحد الأسباب في ضعف الاستجابة الإنسانية^(١٨)، وطالب سفير دمشق لدى الأمم المتحدة بأن تكون الحكومة السورية مسؤولة

- (١) تقرير منظمة OCHA، الجمهورية العربية السورية - الفريق القطري الإنساني (HCT) الاستجابة المنسقة، التحديث العاجل ١٣، بتاريخ ١٨ فبراير ٢٠٢٣، موقع reliefweb.int.
- (٢) خطة الاستجابة العاجلة، من المؤتمر الصحفي الذي عقده وزير الإدارة المحلية والبيئة، ٢٠٢٣/٢/٨، صفحة وكالة سانا عاجل على الفيس بوك
- (٣) تصريح وزير التربية لوكالة سانا، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/٨.
- (٤) تقرير منظمة OCHA، الجمهورية العربية السورية - الفريق القطري الإنساني (HCT) الاستجابة المنسقة، التحديث العاجل ١٣، بتاريخ (١٨) فبراير ٢٠٢٣، موقع reliefweb.int.
- (٥) مقطع منشور على صفحة بعثة الاتحاد الأوروبي في سوريا على الفيس بوك، بتاريخ ٢٠٢٣/٢/٩.
- (٦) تقرير بعنوان: النظام يطالب برفع العقوبات مستغلاً مشاهد من كارثة الزلزال في الشمال السوري، شبكة شام، بتاريخ ٢٠٢٣/٢/٩.
- (٧) تقرير: «استغلال الأمساء لأغراض سياسية».. تساؤلات تحيط باهتمام نظام الأسد بالمساعدات الإنسانية، موقع قناة الحرة، بتاريخ ٢٠٢٣/٢/٩.
- (٨) تقرير: رئيس الهلال الأحمر السوري: مستعدون لإرسال مساعدات للمناطق المحررة ومنها إدلب، موقع CNN بالعربي، بتاريخ ٢٠٢٣/٢/٧.
- (٩) تقرير: رغم تضررها من الزلزال.. نظام الأسد يقصف مارع شمال حلب، العربية الحدث، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/٧.
- (١٠) تقرير: مقارنة المساعدات الإنسانية المقدمة لمنكوبي الزلزال في سوريا، صفحة (منسقة الاستجابة الإنسانية) على فيسبوك، بتاريخ ٢٠٢٣/٢/١٩.
- (١١) موظفة إغاثة ألمانية: التنازل عن نصف المساعدات شرط النظام للوصول إلى ضحايا الزلزال بالشمال السوري، الجزيرة مباشر، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/١٧.
- (١٢) كيف يسيّس نظام الأسد عشرات الملايين من المساعدات، مركز الدراسات العالمية والاستراتيجية CSIS، ٢٠٢١/١٠/٢٠.

زريعة التفاعل مع الأزمة، متجاهلة التصريحات السياسية السابقة، والانتهاكات الإنسانية التي أكدت تقارير أممية والتي تصنف كجرائم حرب، ومنتاسية شحنات المخدرات والكتباغون التي غزت المنطقة ولم تتوقف حتى خلال فترة الزلزال.

وقد اعترفت الأمم المتحدة بتقصيرها وتقاوعها في الاستجابة للمناطق المحررة بشكل خجول، ولكنها أيضًا حاولت الضغط على المنظمات العاملة في تلك المناطق، فقد تعرضت بعض المنظمات السورية وعلى رأسها الدفاع المدني لتهديدات مباشرة من قبل فريق الإنقاذ التابع للأمم المتحدة الذي طالب تلك المنظمات بالصمت والتوقف عن انتقاد الأداء الأممي في حال كانوا يرغبون باستمرار الحصول على الدعم الإنساني^(٤).

لقد ساعدت بيروقراطية الأمم المتحدة -إن أحسنا الظن- على تسييس المساعدات الإنسانية والاستجابة الطارئة، وفوتت فرصة ثمينة لإنقاذ الأرواح وتقليل الخسائر تحت ذرائع لوجستية وقانونية غير حقيقية، ادعت أنها مضطرة للحصول على موافقة نظام الأسد على استخدام معابر خرجت عن سيطرته منذ سنوات، وهو ما منح نظام الأسد مكاسب سياسية مجانية، ولم يترجم الحصول على هذه الموافقة بتغيير في حجم الاستجابة، بل بقيت معظم المساعدات تدخل من معبر باب الهوى.

لقد تعامل المجتمع الدولي تحت ستار التفاعل مع الكارثة الإنسانية مع نظام ثبت تورطه بالعديد من الأدلة في جرائم ضد الإنسانية، وهو ما مكنه مجددًا من التلاعب والانتقام من معارضيه، وقدمه كشريك في قرارات تؤثر بشكل مباشر على حياة ملايين السوريين الذين يعتبرون ضحايا له منذ ما يزيد على عشر سنوات، تفنن خلالها بالتنكيل بهم بالحصار والتجويع والقصف والاستهداف والتفجير، وهو ما يثبت مجددًا أن السياسة الدولية الحالية لا تملك أي بعد أخلاقي، تتحرك وفق مصالحها الخاصة، وتبقي الشعارات والقوانين الإنسانية معطلة تارة ونشطة تارة أخرى بما يخدم تلك المصالح وينفع تلك الدول.

غير مباشر، لاسيما المساعدات النقدية، وقوافل الإغاثة والمشتقات النفطية، كما مارس نظام الأسد حالة من الضغط والابتزاز تمكّن فيها من التحكم بعملية توزيع المساعدات بشكل غير مباشر من خلال فرض الموافقات الأمنية أو عرقلة تحرك هذه المساعدات عبر الحواجز.

كما وجهت اتهامات لمسؤولي النظام السوري بالتلاعب بالمسؤولين الأمنيين والدوليين من خلال إدراج المناطق المتضررة من العمليات العسكرية السابقة على أنها متضررة من الزلزال الأخير، وهذا ما لوحظ من خلال مئات المقاطع المصورة، وتصريحات بعض المسؤولين الأمميين أبرزها رئيس منظمة الصحة العالمية^(١) الذي أشار في فيديو لرحلته من دمشق إلى حلب قائلًا: «لم أر في حياتي أبدًا مستوى للدمار كما رأيت في الطريق من حلب إلى دمشق. هياكل عظمية للمنازل، تقريبًا لا يوجد أشخاص فيها نهائيًا، أكثر من عقد من الحرب تسببت في خسائر لا يمكن تصورها. يحتاج السوريون إلى دعمنا الآن وفي السنوات القادمة لإعادة بناء حياتهم»^(٢).

على الرغم من كون الخسائر البشرية في المناطق المحررة بلغت ٣ أضعافها في مناطق نظام الأسد، إلا أنّ المساعدات الإنسانية التي انهالت على نظام الأسد فاقت ما قدّم للمناطق المحررة بمراحل، في عملية تسييس واضحة للغاية وغير عادلة

ديبلوماسية الكوارث، المصالح قبل المبادئ:

وعلى الرغم من التصريحات السياسية والإنسانية، ومع أن التقارير اليومية تشير إلى أن عدد الخسائر البشرية في المناطق المحررة بلغت ٣ أضعافها في مناطق نظام الأسد، وتجاوز عدد الجرحى ٥ أضعاف نظيره في مناطق نظام الأسد^(٣)، بدت عملية تسييس المساعدات الإنسانية واضحة للغاية وغير عادلة، واستخدمت لأهداف سياسية تحت سمع المجتمع الدولي وبصره، وانطلقت مساع عربية لإعادة تعويم نظام الأسد من خلال الزيارات والمراسلات ورفع مستوى التمثيل الدبلوماسي تحت

(١) تقرير: مقارنة المساعدات الإنسانية المقدمة لمنكوبي الزلزال في سوريا، صفحة (منسقة الاستجابة الإنسانية) على فيسبوك، بتاريخ ٢٠٢٣/٢/١٩.

(٢) حساب رئيس منظمة الصحة العالمية على تويتر، @DrTedros، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/١٤.

(٣) منشور الدكتور محمد كتوب على الفيس بوك، مرجع سابق.

(٤) الخوذ البيضاء: الأمم المتحدة هددت المنظمات السورية، الجزيرة مباشر، تاريخ النشر ٢٠٢٣/٢/١٨.



ونجوتُ من الزلزال

أ. رياض عطا الله

بسبب مرض طفلي لم أنم يوماً وبدأ الزلزال قبل الفجر، ومن الثواني الأولى للزلزال كنت قد وصلت أنا وعائلتي للحديقة التي لا تبعد سوى أمتار عن بيتنا. كنا أول من وصل، وبدأت الناس تنزل من البيوت علماً أن الاهتزاز توقف، وشاهدت الرعب والخوف في عيون الواصلين. رأيت الخوف وجربته مراراً، ولكن الخوف الذي رأيته في عيون الرجال لم أره من قبل، بكاء النساء والأطفال كان مختلفاً عن أي بكاء عرفته، ومن وصفها قيامة مصغرة كان محقاً.

لم يشغلني خوفي من تهدم البيت عن أطفالي النيام وزوجتي، ولم أخرج إلا وهم أمامي، أما القيامة فسوف تفرُّ عن كل من حولك. أصبح البيت وكأنه قبر وخرجنا منه للحياة من جديد.

هذا الزلزال هز كل شيء فينا، جعلنا نعيد النظر في كل ما نملكه، واتضح لنا بالدليل أننا لا نملك شيئاً.

هذه آية من آيات الله في الأرض، وبإذن الله رحمة لمن مات، وابتلاء لمن كتب الله له النجاة، وكان كل شيء اهتز إلا عقيدتنا.



حجابٌ ودعاء

أ. محمد أكرم جاويش

تعبت المباني من التجافي، فاستراحت إلى التعانق، وغارت الجاذبية منها، فانتقمت من لبناتها أطلاقاً... ثمة أشياء تلمع! كيف ذاك، ونحن في فضاء رمادي طغى على الجو مؤخراً؟ الأصفر والأحمر والأزرق،،، حمداً، لم نَصَبْ بعمى الألوان! جذبتنا هذه الألوان مثل فراشة رأت ناراً! صور عائلية تقاذفتها البوماتها! هل كانت هذه الصور -من قبل- بهذا الإشراق واللمعان، رغم ضباب المحيط وغبار القدر، أم إنها حُزْمٌ نورانية، تنزلت من مضافة أصحابها الآن؟

لم نجرؤ على لمسها، فصوتٌ مجلجل عمّ المكان: «إنها صورنا الخاصة، لا يحق لكم لمسها، أو النظر إليها!»، ثم تابع: «أيها المغترون بأجسادكم وأبنيتكم! لقد فضحت أجسادنا وبيانت سواة خصوصياتنا نحن، ولكنكم لستم في عريكم أكثر حشمة منا! لقد نقضتم عرى العهد، وهتكتم حجب الإيمان!» ماذا يقصد؟

كان رجل مسن ينتظر في طابور الطعام ويتمتم. اقتربت منه لأسأل حاجته، تابع متمتمته التي بالكاد تسمع: «رحمتك ومغفرتك، وسترك!»

قال لي صديقي: لقد كلفنا كثيراً فهم الدعاء: «اللهم استر عورتنا، وآمن روعاتنا!»



زلزلة الإيمان

أ. أحمد خالد أحمد

أن تستيقظ على حالة عجيبة من الرعب، أو على فقد لأحدٍ من أهلِكَ أو أولادِكَ أو أعضائك أو أحيابِكَ وأصحابِكَ، فهذه -لا شك- أنها ألوانٌ من الابتلاءات والمصائب التي يُوجِر المؤمن عليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما يُصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذىٍ ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها) (١).

ولكن أن يُصاب المرء في دينه؛ فتلك هي الزلزلة الحقيقية، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلسٍ حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه؛ وذكر منها: (ولا تجعل مُصيبتنا في ديننا) (٢)، وشتان بين مشهدين من مشاهد الزلزال:

طفلةٌ تخرج من تحت الأنقاض وهي حزينة؛ لفوات بعض الصلوات عليها..

وفي أحد المساجد: حيث الناس مُتجمعة، والأطفال تبكي -بطبيعة الحال- يستيقظ شخصٌ من نومه ويقول: «بتفقيقوا الواحد من أحلى نومته! أكفر يعني؟!». .

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢).

عمر جديد

أ. محمد أمجد بيات

بعد شهر من الزلزال خرجت قبيل العصر أحضر أغراضاً للبيت، وإذ بائنين من جيراني الأتراك يقفان بجانب العمارة يتحدثان، فلما رأوني نادى عليّ أحدهما فلما أتيت قال لي: هل تشعر بالهزّات؟ قلت له: لا، أنا أنام في البيت من يومين ولم أشعر بشيء.

فالتفت لصاحبه وقال له: هل صدّقت! لا يوجد شيء.

فالتفت إلي الآخر وقال لي يخاطبني: يا أخي أنت معك زوادتك إذا صار شي ما بهمك!

قلت له زوادة إيش؟ ما عندي إلا ما عندكم!

فقال لي الثاني: هو يقصد أنك تصلي وتصوم وتقرأ قرآن، أما نحن ما عندنا شيء من أعمال البر وإذا متنا فأمورنا صعبة أمام الله!

فاغتنمتها فرصة وقلت لهما: ومن يمنعكم الآن من الصلاة والطاعة والإحسان؟ اعتبروا ما حصل فرصة للتوبة والإنابة والعودة إلى الله، وأن الله كتب لكم عمراً جديداً لكي تحسنوا وتصلحوا ما فات، وربنا غفور رحيم إن شاء الله.





وزُلزلوا زلزالاً شديداً

د.خير الله طالب

في معركة الخندق اشتدَّ حصار أحزاب الكفر للمدينة المنورة، وجاء العدو من فوق ومن أسفل، واشتدَّت الرياح والبرد والظلمة، حتى ما يجرؤ أحدٌ على الحركة، فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وساءت ظنون المنافقين بربهم، ﴿هُتَالِكَ اِبْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

وانكشف فريقٌ من الناس، فقال المنافقون ومن في قلوبهم مرض: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، ولأن أناساً بالفرار متذرعين بالوهم، ناسين أن الفرار لن ينفعهم من الموت أو القتل، وأخفقوا عهد الله الذي سيُسالون عنه.

لقد أجلب الزلزال على قضية أهل الشام لزلزل أكبر منه بممالأة عدوهم بالمساعدات، لكن الزلزال ذاته أوجد فرصاً جديدة للعاملين، فجدد لأهل الشام آمالهم.

وأكثر من عشر سنوات مضت في جهاد أهل الشام اليوم، سطرُوا فيها ما تعجز صفحات التاريخ عن استيعاب أحداثه ورواية مأساه، وكان لهم فيها من البطولات ما نذكرهم وذكّر الناس بثبات الصحابة ورباطتهم. ومع عدم تكافؤ القوى حققوا ما لم يكن في الحساب، فحروا سبعين في المائة من أرضهم، ثم صابروا على الحصار حتى أكلوا أوراق الشجر، وصمدوا أمام الجيوش التي تداعت لكسرهم، وشيعوا من الشهداء ما يفوق الحصر، ثم انحصروا في الشمال؛ ليشقوا طريقاً جديداً.

وإن المبصرين ليتراءون أعمدة النصر في سورة الأحزاب، فيجدونها في ثلاث ركائز:

أكثر من عشر سنوات مضت في جهاد أهل الشام اليوم، سطرُوا فيها ما تعجز صفحات التاريخ عن استيعاب أحداثه ورواية مأساه، وكان لهم فيها من البطولات ما نذكرهم وذكّر الناس بثبات الصحابة ورباطتهم. ومع عدم تكافؤ القوى حققوا ما لم يكن في الحساب، فحروا سبعين في المائة من أرضهم، ثم صابروا على الحصار حتى أكلوا أوراق الشجر، وصمدوا أمام الجيوش التي تداعت لكسرهم، وشيعوا من الشهداء ما يفوق الحصر، ثم انحصروا في الشمال؛ ليشقوا طريقاً جديداً.

أولها الثقة والتصديق بوعد الله، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

في الشمال بدأ الناس من الصفر صناعة الحياة من جديد، في ظروف التهجير القسري وشدة العوز وتنوع المصائب وهشاشة البنية التحتية وندرة فرص العمل، وخلال سنوات قليلة تخللها حملات قاسية للعدو كانت تهدم ما بنوه ليبدووا من جديد، حتى رأينا آلاف الطلبة متزاحمين على مقاعد الدراسة المترهلة، ونحو عشر جامعات، وجمعيات ومشروعات تنحت الصخر لتغيث الملهوف، وصبياناً بلغوا مبلغ الرجال يحدوهم الأمل ببناء مستقبل مزهر.

ثانيها صدق العزم على المضي إلى آخر الطريق أو آخر رمق: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. إنها إحدى الحسنين.

ومع شدة حرارة القضية في النفوس فإنَّ ثمة من تسلل إليه اليأس بسبب استطالة الطريق وغياب القيادة وفقد التوجيه وكثرة الخلافات وتنامي الفساد وشيوع الفقر ونشاط تجار الأزمات من جهات مشبوهة وفصائل مصنوعة تنخر في هوية الشعب وفطرته.

وما نالوا هاتين إلا بثالثة كالعمود الفقري لتصديق القلب وصدق العزم، وردت في وسط حكاية المعركة، ترسم منهجية الحرب وطريق النصر، صفة لا ينالها إلا من عظم يقينه ورجاؤه بقاء الله عز وجل، ورسم منهجه باسم الله، لا يلتفت عن ذكر الله ولا ينقطع قولاً وفعلاً، ألا وهي كمال التأسي بالنبي في شؤون الحياة والعمل كلها. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنه النصر الموعد لمن يمضي واثقاً، ويعمل متأسياً.

ويجيء الزلزال الأخير -بمأساه وآلامه وكوارثه- على أهل الشام حلقة ضمن تحديات جهاد طويل، ويهبُّ الناس من جديد للإنقاذ والإغاثة، وتدبُّ الدماء





ترحب مجلة رَوَاء بمقالاتكم العلمية والفكرية
ضمن المحاور الأساسية للمجلة



ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

رقاء



rawaamagazine

www.rawaamagazine.com